الفصل الثاني

وينقسم هذا الفصل إلى مبحثين على النحو التالي:

أولا: مواضع الحوار في القرآن.

ثانيا: موضوعات الحوار في القرآن.

المبحث الأول
مواضع الحوار في القرآن

عدد	الموضوع	مواضعه	مجموع الآيات
١	حوار الله مع الملائكة وآدم وإبليس	البقرة: ٣٠-٤٠	١٠
		الأعراف: ١١-٢٦	١٥
		الحجر: ٢٨-٤٣	١٥
		الإسراء: ٦١-٦٦	٥
		طه: ١١٦-١٢٥	٩
		ص: ٧١-٨٦	١٥
٢	حوار موسى مع قومه في قصة البقرة	البقرة: ٦٧-٧٢	٥
٣	حوار الله مع إبراهيم في بناء البيت	البقرة: ١٢٤-١٣٤	١٠
٤	حوار بني إسرائيل مع نبيهم وطالوت	البقرة: ٢٤٦-٢٥١	٥
٥	حوار إبراهيم مع النمرود	البقرة: ٢٥٨	١
٦	حوار الله مع الذي أماته مائة عام	البقرة: ٢٥٩	١
٧	حوار الله مع إبراهيم كيف يحي الموتى	البقرة: ٢٦٠	١
٨	حوار زكريا مع ربه	آل عمران: ٣٨-٤٢	٤
		مريم: ٢-١٢	١٠
٩	حوار الملائكة مع مريم	آل عمران: ٤٢-٤٨	٦

عدد	الموضوع	مواضعه	مجموع الآيات
١٠	حوار موسى لقومه في دخول الأرض المقدسة	المائدة: ٢٠-٢٦	٦
١١	حوار ابني آدم	المائدة: ٢٧-٣٢	٥
١٢	حوار الله مع عيسى والحواريين	المائدة: ١٠٩-١٢٠	١٢
١٣	حوار إبراهيم مع أبيه وقومه	الأنعام: ٧٤-٨٣ الأنبياء: ٥٢-٧٠ الشعراء: ٧٠-٩٠ الصافات: ٨٥-٩٩	٩ ١٨ ٢٠ ١٤
١٤	حوار أهل الجنة مع أهل النار والأعراف	الأعراف: ٤٤-٥٢ المدثر: ٣٩-٤٨	٨ ٩
١٥	حوار نوح مع قومه	الأعراف: ٥٩-٦٥ يونس: ٧١-٧٤ هود: ٢٥-٣٥ المؤمنون: ٢٣-٣٠ الشعراء: ١٠٦-١١٩	٦ ٣ ١٠ ٧ ١٣
١٦	حوار هود مع قومه	الأعراف: ٦٥-٧٣ هود: ٦١-٦٦ الشعراء: ١٤٢-١٥٧	٨ ٨ ١٥
١٧	حوار صالح مع قومه	الأعراف: ٧٣-٨٠ هود: ٦٦-٦١ الشعراء: ١٤٢-١٥٧ النمل: ٤٥-٤٨	٧ ٥ ١٥ ٣

عدد	الموضوع	مواضعه	مجموع الآيات
١٨	حوار لوط مع قومه والملائكة	الأعراف: ٨٠-٨٥	٥
		هود: ٧٧-٨٢	٥
		الحجر: ٦١-٧٢	١١
		الشعراء: ١٦١-١٧٠	٩
		النمل: ٥٤-٥٧	٣
		العنكبوت: ٢٨-٣١	٣
١٩	حوار شعيب مع قومه	الأعراف: ٨٥-٩٤	٩
		هود: ٨٤-٩٤	١٩
		الشعراء: ١٧٧-١٨٩	١٢
٢٠	حوار موسى مع فرعون وقومه والسحرة	الأعراف: ١٠٤-١٣٦	٣٢
		الإسراء: ١٠١-١٠٣	٢
		طه: ٤٧-٧٧	٣٠
		الشعراء: ١٠-٦٤	٥٤
		القصص: ٣٦-٣٩	٣
		النازعات: ١٦-٢٦	١٠
٢١	حوار موسى مع قومه	الأعراف: ١٣٨-١٤٠	٢
		يونس: ٧٥-٨٣	٨
٢٢	حوار موسى مع ربه في طلب الرؤية	الأعراف: ١٤٣-١٤٥	٢
٢٣	حوار موسى مع هارون والسامري	الأعراف: ١٥٠-١٥٢	٢
		طه: ٨٦-٩٩	١٣
٢٤	حوار نوح مع ربه في شأن ابنه	هود: ٤٥-٤٩	٤
٢٥	حوار إبراهيم مع الملائكة	هود: ٦٩-٧٤	٥
		الحجر: ٥٢-٦١	٩

عدد	الموضوع	مواضعه	مجموع الآيات
		العنكبوت: ٣١-٣٣ الذاريات: ٢٥-٣٥	٢ ١٠
٢٦	حوارات قصة يوسف. «٢٠ موقفا»	يوسف: ٤-١٠١ «٢٠ موضعا»	٩٧
٢٧	حوار الرسل مع أقوامهم	إبراهيم: ٩-١٤	٥
٢٨	حوار أهل الكهف	الكهف: ١٠-٢١	١١
٢٩	حوار صاحب الجنتين	الكهف: ٣٤-٤٤	١٠
٣٠	حوار موسى مع فتاه والخضر	الكهف: ٦٠-٨٣	٢٣
٣١	حوار ذي القرنين	الكهف: ٨٦-٩٩	١٣
٣٢	حوار مريم مع الملك وقومها	مريم: ١٧-٣٤	١٧
٣٣	حوار إبراهيم مع أبيه	مريم: ٤٢-٤٩	٧
٣٤	حوار موسى مع ربه في شأن رسالته	طه: ١١-٤٨ النمل: ٧-١٣ القصص: ٢٩-٣٦	٣٧ ٦ ٧
٣٥	حوار النبي مع المشركين	المؤمنون: ٨٤-٩٠	٦
٣٦	حوار الله لأهل النار	المؤمنون: ١٠٥-١١٦	١١
٣٧	حوار سليمان مع النملة والهدهد	النمل: ١٨-٢٩	١١
٣٨	حوار ملكة سبأ مع قومها	النمل: ٢٩-٣٦	٧
٣٩	حوار سليمان مع الرسل وملئه وبلقيس	النمل: ٣٦-٤٥	٩
٤٠	حوار موسى مع اليهودي والقبطي وابنتي مدين وأبيهما	القصص: ١٥-٢٩	١٤
٤١	حوار قارون مع قومه	القصص: ٧٦-٨١	٥

عدد	الموضوع	مواضعه	مجموع الآيات
٤٢	حوار المستكبرين والمستضعفين في النار	سبأ: ٣١-٣٤ الصافات: ٢٧-٣٣ غافر: ٤٧-٤٩	٣ ٦ ٢
٤٣	حوار أصحاب القرية مع المرسلين والرجل المؤمن	يس: ١٤-٢٦	١٢
٤٤	حوار أهل الجنة	الصافات: ٥١-٦١ الطور: ٢٥-٢٩	١٠ ٤
٤٥	حوار إبراهيم مع ابنه	الصافات: ٩٩-١٠٦	٧
٤٦	حوار داود مع الخصمين	ص: ٢٢-٢٤	٢
٤٧	حوار الملائكة مع أهل الجنة والنار	الزمر: ٧١-٧٥ غافر: ٤٩-٥١ الملك: ٨-١١	٤ ٢ ٣
٤٨	حوار مؤمن آل فرعون مع قومه	غافر: ٢٨-٤٥	١٧
٤٩	حوار أهل النار مع جلودهم	فصلت: ٢٠-٢٢	٢
٥٠	حوار المخلفين من الأعراب	الفتح: ١١-١٧	٦
٥١	حوار القرين مع قرينه عند الله	ق: ٢٣-٣٠	٧
٥٢	حوار المنافقين والمؤمنين	الحديد: ١٣-١٦	٣
٥٣	حوار المجادلة	المجادلة: ١	١
٥٤	حوار النبي مع بعض أزواجه	التحريم: ٣	١
٥٥	حوار أصحاب الجنة المانعين للمساكين	ن: ١٧-٣٣	١٦
المجموع		١١٧ موضعًا	٩٧٠

المبحث الثاني
موضوعات الحوار في القرآن الكريم

مدخل:

لقد بعث الله نبيه محمدًا ﷺ للناس كافة من زمان بعثته إلى قيام الساعة، وأنزل إليه كتابه ليكون منهجه في دعوتهم أجمعين، وجعله معجزة معه ومع كل من يحمله من أتباعه من بعده، وتكفل الله تعالى بحفظه ليبقى معروضا على جميع من يأتي بعده إلى قيام الساعة لتظل به حجة الله على الناس باقية، وليضمن به بقاء نور هداية الله لكل حي، ولا يُحرم من هذا الخير أحد.

وقد أودع الله تعالى في كتابه الحق كله. قال تعالى: ﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ [الإسراء: ١٠٥]. وقال تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ [الكهف: ٢٩]. وقال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ ﴾ [يونس: ١٠٨]. بل حصر فيه الهداية كل الهداية فقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ٧٣]. وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ﴾ [الأنعام: ٧١]. فالقرآن كله هدى، والهدى كله في القرآن، فهو كتاب حق وهداية، فصل الله تعالى فيه كل ما يحتاج إليه الناس قاطبة، ولذا قال عنه تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: ٨٩]. وقال تعالى: ﴿ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴾ [الإسراء: ١٣]. وقال تعالى: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٨]. وقال تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ [الفرقان: ٣٣].

وهذا التبيان وهذا التفصيل شمل جميع الأزمان الماضي منها والحاضر والمستقبل، كما جاء ذلك في حديث النبي محمد ﷺ عن وصف القرآن حيث قال: «**ألا إنها ستكون فتن**». قلنا: وما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: «**كتاب الله تعالى، فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره**

أضله الله...»[١].

وجُل هذا التفصيل جاء في صورة حوار، لذا جاءت موضوعات الحوار في القرآن ثرية وشاملة للماضي والمستقبل والحاضر بكل ما يحتاج الناس إليه، فحاور أصحاب الحضارات من الأمم السابقة من خلال حوار أنبياء الله الذين أرسلوا إليهم معهم، بل بيَّن من خلال الحوار ما يقوم ويرشد به من جاءوا بعدهم ومن سلكوا سبيلهم، وحاور كذلك كل من نزل القرآن الكريم في زمانهم من أصحاب الحضارات ومن غيرهم من مدعى الحضارة ومن المنافقين ومن كل طوائف البشر ممن عاصروا الوحي وممن يأتي بعدهم، فحذرهم من مغبة اتباعهم لمسالك من سبقهم بعد أن بيَّن لهم عوارها، ورد على أكاذيبهم وشبههم، والتي دارت حول: أ- أصول الإيمان الستة، وهي: «الإيمان بالله ووحدانيته وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر» وهذه كلها سيتم إن شاء الله الحديث عنها تحت بند «١» معرفة الإله وما له حقوق و كيفية أدائها. ب- الشرائع. وهذه إن شاء الله سيتم شرحها تحت بنود ثلاثة وهي: ١- معرفة الإنسان نفسه وكيفية التعامل معها. ٢- معرفة الإنسان من حوله من البشر وكيفية التعامل معهم. ٣- معرفة الإنسان ما حوله من الخلائق غير البشر وكيفية التعامل معهم، وهذا ما سنراه إن شاء الله تعالى في هذا الفصل الأهم من هذه الرسالة.

والمتدبر في القرآن يجد أن احتياجات الناس تنحصر في أربعة أمور رئيسة، هي موضوعات الحوار في جميع الأزمان والأوقات، وهى التي حاور الأنبياء فيها من أرسلوا إليهم من أصحاب الحضارات عبر العصور، ولأنها موضع تكذيبهم وإثارة الشبه حولها، وهي:

١-معرفة الإله الخالق وأداء ما له من حقوق وما علينا من واجبات.

٢-معرفة الإنسان نفسه وكيفية التعامل معها.

٣-معرفة الإنسان بمن حوله من البشر وكيفية التعامل معهم.

٤-معرفة الإنسان بكل ما حوله من خلائق غير الإنسان وكيفية التعامل معهم.

---

(١) رواه الإمام الترمذى عن على بن أبى طالب ﷺ مرفوعًا، باب ما جاء في فضل القرآن رقم (٣١٥٣)، ورواه الدارمي والبغوي، وفي مصنف البزار وابن أبي شيبة، وقال الترمذي فيه مجهول وقال الألباني في تخريجه للترمذي ضعيف وهوحديث حسن فى أصح الأقوال.

فهذه الموضوعات الأربعة تشمل جميع صور التعامل التي يحتاج الإنسان إليها، فليس للإنسان من أحد يتعامل معه غير ربه الذي خلقه وأدار ودبر الكون من حوله، ثم مع نفسه التي بين جنباته بما فيها من قلب ونفس وهوى، ثم مع الناس من حوله القريب منهم والبعيد، الكبير منهم والصغير، الذكر منهم والأنثى، العدو منهم والصديق، ثم التعامل مع جميع من وما يحيط به من الخلائق الظاهر منها، كالدواب والأرض والسماوات، والخفي منها، كالملائكة والجن والشياطين.

والقرآن الكريم قد فصل للناس هذه الموضوعات الأربعة من خلال ذكره لتاريخ البشرية وخاصة أصحاب الحضارات منهم، وكيف كانت مواقف الناس منها كأهل الفهم والعلم والعقل من الأنبياء والحكماء والصالحين، وكأهل الجهل والعتو والطغيان من الكفرة والمشركين والمنافقين ومن نحا نحوهم.

ثم عمد القرآن إلى واقع الناس في زمان البعثة وما بعدها، وفصل قواعد التعامل وآدابه وحاور من زعموا أنهم أصحاب حضارة فاقت في نظرهم غيرها من الحضارات، فجادلهم ورد على شبهاتهم ومفترياتهم ليثوبوا إلى رشدهم وينتهوا عن غيهم وليتعايشوا مع بعضهم، ولتسلم لهم دنياهم وليسلموا فيها من ظلم بعضهم بعضا.

ثم عرض القرآن الكريم ثمرات تعاملات الناس ومصائرهم وما يدور بينهم من حوارات ومجادلات في المستقبل القريب منه، كوقت نزول عذاب أو عقاب من الله لهم على ما قدمت أيديهم، أو في المستقبل البعيد -يوم القيامة- حين تظهر لهم نتائج تعاملاتهم حسنها وقبيحها.

لذا قسمت هذا المبحث إلى أربعة مطالب -وهى الموضوعات الأربعة السابق ذكرها- وهي:

المطلب الأول: معرفة الإله الخالق وأداء ما له من حقوق وما علينا من واجبات.

المطلب الثاني: معرفة الإنسان لنفسه وكيفية التعامل معها.

المطلب الثالث: معرفة الإنسان للبشر وكيفية التعامل معهم.

المطلب الرابع: معرفة الإنسان بكل ما حوله من الخلائق غير الإنسان وكيفية التعامل معهم.

المطلب الأول

معرفة الإله الخالق وأداء ما له من حقوق وما علينا من واجبات

تمهيد:

مما لاشك فيه أن الله تعالى خلق الإنسان وهو أعلم بقدراته وطاقاته من علمه هو بنفسه، قال تعالى: ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ﴾ [النجم: ٣٢].

وقال تعالى: ﴿ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الملك: ١٣-١٤].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ٥-٦].

وقد بين تعالى في كتابه مدى ضعف الإنسان وعجزه وعدم قدرته على إدراك قدر الإله الذي خلقه وصوره وشق سمعه وبصره فقال تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [الأنعام: ٩١]، وقال تعالى: ﴿ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٧٤].

فهذه مصيبة المصائب وبلية البلايا أن الناس على مر العصور لم يعرفوا قدر الإله الذي خلقهم، فتصورا في حقه تصورات لا تليق بجلاله وقالوا في حقه ما لا يليق بقدره.

فمِن جاعل إلهه بشرًا، ومن جاعل إلهه حجرًا، ومن جاعل إلهه شجرًا، أو قمرًا أو نجما أو شمسًا أو هوى، ومن واصف لإلهه بالعجز أو بالجهل أو بالبخل أو بالظلم أو بغير ذلك من ذميم الصفات التي لا يرضاها الإنسان لنفسه أو حتى لغيره من البشر، والبشرية كانت على ذلك ومازالت حتى يومنا هذا تنسب لله كل ذلك إلا من رحم ربك وقليل ما هم، فأكثر من

خمسمائة مليون الآن يعبدون بوذا الصنم، وهم أصحاب حضارة مادية، ففي اليابان تقدم مادي مذهل وفي غيرها ممن يعبدون بوذا الصنم، وأكثر من خمسمائة مليون من الهنود وغيرهم ممن صنعوا القنبلة وغيرها وما زالوا يعبدون البقر، بل إن من زعموا أنهم أعلم الناس وأعقلهم وأعظمهم فكرا وهم الفلاسفة بعد طول معاناة وفكر في الطبيعة وفيما وراء الطبيعة فغاية ما وصلوا إليه أنهم انقسموا في حق الإله تعالى؛ فمنهم من أنكر وجوده وكفر به وجحده، ومنهم من أقر بأن للخلق خالقا وللكون مدبرا عظيما لكنهم ما قدروه حق قدره، فلا عرفوا له حقا ولا أدوه له بحق، ولا عرفوا يوما واجبهم نحوه.

وحتى أهل الكتاب ممن نُسبت كتبهم إليه تعالى بعد أن اعتراها التبديل والتحريف والتغيير فقد نسبوا إليه فيها الشيء الكثير مما لا يليق به؛ فمنهم من نسب إليه الولد، ومنهم من جعل له ندًّا، ومنهم من جعله جزءا أو أقنومًا[1] من ثلاثة أقانيم ابتدعوها ما أنزل الله بها من سلطان، ومنهم من صوره نائما أو جاهلا أو غافلا أو عاجزا أو بخيلا أو غير ذلك مما لا يليق بجلاله وجماله وكماله، ثم نسبوا هذا كله إليه وإلى وحيه المنزل من عنده فجعلوه نصا أو فهما لنص في كتابه، وكل ذلك يدل على شدة جهل الإنسان بربه وعدم تقديره له، ومع ذلك رب العباد اختاره من بين مخلوقاته وكرمه وحمله أمانته ووحيه واصطفاه لعمارة أرضه واستخلفه فيها، وفي هذا قال تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢]. حملها مع جهله وعلمه المحدود الذي لا يتجاوز ما ترى عينه أو تسمع أذنه أو يتخيل قلبه، وكلها ملكات محدودة، وثمراتها علوم قاصرة لا تتجاوز بعض ظواهر الحياة الدنيا، وصدق تعالى إذ يقول: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ

(١) الأقانيم جمع أقنوم وهو عندهم الشيء المستغني بذاته عن أصل جوهره في إقامة خاصة جوهريته – كتاب الإعلام بما في دين النصارى- (١/ ٦١)، وقال ابن القيم: هو إله تام وإنسان تام معروف بطبيعتين ومشيئتين وفعلين أقنوم واحد – هداية الحيارى (١/ ١٤٦)، وقال صاحب أعلام النبوة: اختلفوا في الأقانيم فقال بعضهم هي خواص وقال بعضهم هي أشخاص وقال بعضهم هي صفات. أعلام النبوة (١/ ٢٠).

﴿غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: ٦-٧]. فحصر علم البشرية في بعض ظواهر الحياة الدنيا.

والمدقق البصير يرى حقيقة ذلك وأن علم البشرية ينحصر في بعض مظاهر الحياة الدنيا و«مِنْ» في الآية السابقة تبعيضية، أي بعض ظواهر الحياة الدنيا، والقرآن الكريم يبرهن على ذلك في مواضع عدة منه، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

المثال الأول: قول الله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ۝ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ﴾ [التكوير: ١٥-١٦].

فكلنا نرى النجوم ليلا مع الظلام الدامس تملأ صفحة السماء فأين هى بالنهار مع اتضاح الرؤية وشدة النور، بل لو كنا في الليل المظلم والنجوم تملأ صفحة السماء وأشعلنا عود كبريت أو نار لغاب عن بصرنا الكثير من النجوم، فمجرد شعاع من نور حال بيننا ورؤية الكثير من النجوم فكيف بنور الشمس إذا سطع؟ لم نعد نرى وراءه شيء، ولذا أقسم الله تعالى في الآية «بالخنس الجوار الكنس»: «أي النجوم التي تظهر لنا ليلا ثم تخنس وتغيب عنا نهارًا»[(١)].

المثال الثاني: قول الله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ﴾ [النمل: ٨٨]. فظاهر الجبال عند الناس أنها جامدة ثابتة راسخة، وحقيقة أمرها أنها تدور مع دوران الأرض بسرعة تفوق سرعة السحاب، وعدم إدراكنا وعدم رؤيتنا لذلك بسبب ضعفنا وضعف قدراتنا، وهذا الضعف فينا وفى قدراتنا من ألطاف الله تعالى بنا؛ فلو تخيل الإنسان منا أنه امتد وطال حتى صار يرى أطراف الكرة الأرضية وهى تدور لأصابه دوار لا يستطيع معه سعى ولا عمل ولا عمار في الأرض، فمن رحمة الله تعالى بنا أننا لا نرى إلا جزءا صغيرًا من الأرض وهو الذي تستطيع أعيننا رؤيته، نراه ثابتا مستقرا حتى نستطيع السير والعمل والعمار في الأرض. وقدماء المفسرين كالإمام الطبري والقرطبي والبغوي وابن كثير وغيرهم قد ذكروا أن مرور الأرض كالسحاب يقع يوم القيامة. قال الإمام الطبري في تفسيره: «يقول تعالى ذكره: وترى الجبال يا محمد تحسبها قائمة وهي تمر، كالذي حدثني علي قال: ثنا أبو صالح قال: ثني معاوية عن علي عن ابن عباس قوله: ﴿وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةً﴾ يقول: قائمة، وإنما قيل:

---

(١) تفسير فتح للشوكاني (٧/ ٤٢٩) حكاه عن قتاده .

﴿ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾ لأنها تجمع ثم تسير فيحسب رائيها لكثرتها أنها واقفة وهي تسير سيرا حثيثا كما قال النابغة الجعدي:

بأرعن مثل الطود تحسب أنهم وقوف لحاج والركاب تهملج[1]

والراجح أنها في الدنيا قبل الآخرة لأن يوم القيامة لا يوجد أحد يرى مرورها، ولا جبال جامدة بعد النفخ في الصور، وقوله: ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ وأوثق خلقه»[2]، ويوم القيامة يهدم فلا يقال أحسن كل شئ هدمه.

المثال الثالث: قول الله تعالى: ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢١].

فالنفس البشرية تتكون من مادة وروح، كلنا نرى المادة ونحسها ونلمسها، ولكن أين علمنا بالروح مع يقيننا بوجودها فينا، وأنها لو خرجت منا لتحولت أجسادنا إلى جثة هامدة لا تملك لنفسها ضرا ولا نفعا، ولذا قال تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥].

فدلت هذه الآية وغيرها على ضعف علومنا عن الإحاطة بالمادة من حولنا، فأنى لنا الإحاطة بخالق المادة وهو غيب عن حواسنا لا تدركه أبصارنا! قال تعالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

ولا تسمعه آذاننا ولا تلمسه أيدينا ولا تدرك قَدْره خيالاتنا وعقولنا وحدها دون بيان منه، وفى حديث أبي ذر الغفاري ﷺ قال: «سألت رسول الله ﷺ: هل رأيت ربك؟ قال: «**نور أنّى أراه**»[3]. ولولا بيان الله تعالى لنا وإنزاله الكتب وإرساله الرسل ما عرفنا لهذا الإله العظيم

---

(١) قاله النابغة الجعدي في وصف الجيش ذكر ذلك الطبري والقرطبي والنسفي والألوسي وغيرهم من المفسرين وذكره ابن منظور في لسان العرب وغيره من أصحاب المعاجم.

(٢) تفسير الطبري (١٠/ ٢١).

(٣) رواه مسلم عن أبي ذر ﷺ في كتاب الإيمان باب قوله عليه السلام «نور أنى أراه» رقم (١٧٨)، والترمذي في التفسير رقم (٣٥٩٣) وقال حسن، وفي مسند أحمد رقم (٢١٩١٩، ٢٢٠٠٠) وغيره من المواضع، والحديث صحيح لوروده في صحيح مسلم.

قدره؛ ولله در أبي بكر الصديق حين سُئل كيف عرفت ربك؟ فأجاب: «عرفت ربي بربي ولولا ربي ما عرفت ربي، العجز عن الإدراك إدراك والبحث في ذات الله إشراك»[١]. بل إن محمدا رسول الله ﷺ مع أنه أعلم الخلق بالله وبصفاته ومحبوباته إلا أنه إذا أراد الثناء على ربه كان يقول: «**سبحانك لا نحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك**»[٢]. ليدلنا على أنه لا يُقدر قدرَ الله تعالى أحدٌ غيره، حتى الثناء عليه ومدحه لا يقوى عليه سواه، مع أنه ﷺ هو الذي علمنا أن الله تعالى يحب الثناء ولذا أثنى على نفسه، ومع ذلك لا طاقة له عليه السلام بالثناء عليه إلا من خلال وحيه وما علمه ربه سبحانه تعالى.

فمن رحمة الله تعالى علينا ولطفه أن تجلى من عليائه من فوق عرشه وسمائه وخاطبنا نحن الضعفاء من خلقه فعرَّفنا بذاته، وبيَّن لنا جميل صفاته، وعلمنا حقه علينا، وكيف نقدر له قدره، بل علمنا قدرنا عنده، وعرفنا حقيقة دورنا في الدنيا، وكيف كلفنا بعمارتها، ففصل لنا تكاليفه وتعليماته في صورة أوامر ونواهٍ، جعل فيها صلاحنا وعمارة الأرض من تحتنا ومن حولنا، وسعادة كل ما على ظهرها باستقامتنا على منهجه تعالى وشريعته.

لقد دعانا الحق تبارك وتعالى بما أوحاه إلى نبيه ﷺ للإيمان به وهو غيب عنا حتى لا تقوم حواجز الحس والمادة دون الاتصال بين أرواحنا والقوى الكبرى التي صدرت عنها وصدر عنها هذا الوجود، ولا تقوم حواجز الحس بين أرواحنا وسائر ما وراء الحس من حقائق وقوى وطاقات وخلائق وموجودات.

«فالإيمان بالغيب هو العتبة التي يجتازها الإنسان، فيتجاوز مرتبة الحيوان الذي لا يدرك إلا ما تدركه حواسه، إلى مرتبة الإنسان الذي يدرك أن الوجود أكبر وأشمل من ذلك الحيز الصغير المحدد الذي تدركه الحواس -أو الأجهزة التي هي امتداد للحواس- وهي نقلة بعيدة الأثر في

---

(١) نسب هذا القول للصديق ونسب لذي النون وورد ذلك في إيقاظ الهمم شرح متن الحكم (١/ ١٨٠، ٣٠١)، مختصر تاريخ دمشق (٣/ ١٣٤).

(٢) رواه مسلم عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها في كتاب الصلاة باب ما يقال في الركوع والسجود رقم (٤٨٦)، أبو داوود رقم (٨٧٩)، كتاب الصلاة، والوتر (١٤٢٩)، والترمذي في الدعوات رقم (٣٨٣١)، والنسائي في الطهارة رقم (١٧٠)، وابن ماجة في الدعاء رقم (٣٩٧٣)، وغيرهم

تصور الإنسان لحقيقة الوجود كله ولحقيقة وجوده الذاتي، ولحقيقة القوى المنطلقة في كيان هذا الوجود، وفى إحساسه بالكون وما وراء الكون من قدرة وتدبير. كما أنها بعيدة الأثر في حياته على الأرض، فليس من يعيش في الحيز الصغير الذي تدركه حواسه كمن يعيش في الكون الكبير الذي تدركه بديهته وبصيرته، ويتلقى أصداءه وإيحاءاته في أطوائه وأعماقه، ويشعر أن مداه أوسع في الزمان والمكان من كل ما يدركه وعيه في عمره القصير المحدود، وأن وراء الكون ظاهره وخافيه حقيقة أكبر من الكون هي التي صدر عنها، واستمد من وجودها وجوده، حقيقة الذات الإلهية التي لا تدركها الأبصار ولا تحيط بها العقول.

وعندئذ تصان الطاقة الفكرية المحدودة المجال عن التبدد والتمزق والانشغال بما لم تخلق له، وما لم توهب القدرة للإحاطة به، وما لا يجدي شيئا أن تنفق فيه. إن الطاقة الفكرية التي وُهبها الإنسان، وُهبها ليقوم بالخلافة في هذه الأرض، فهي موكلة بهذه الحياة الواقعة القريبة، تنظر فيها، وتتعمقها وتتقصاها، وتعمل وتنتج، وتنمى هذه الحياة وتجملها، على أن يكون لها سند من تلك الطاقة الروحية التي تتصل مباشرة بالوجود كله وخالق الوجود[1]، وعلى أن تدع للمجهول حصته في الغيب الذي لا تحيط به العقول. فأما محاولة إدراك ما وراء الواقع بالعقل المحدود الطاقة بحدود هذه الأرض والحياة عليها، دون سند من الروح الملهم والبصيرة المفتوحة، وترك حصة للغيب لا ترتادها العقول، فأما هذه المحاولة فهي محاولة فاشلة أولا، ومحاولة عابثة أخيرًا. فاشلة لأنها تستخدم أداة لم تخلق لرصد هذا المجال. وعابثة لأنها تبدد طاقة العقل التي لم تخلق لمثل هذا المجال. ومتى سلم العقل البشري بالبديهية العقلية الأولى، وهي أن المحدود لا يدرك المطلق، لزمه -احترامًا لمنطقه ذاته- أن يسلم بأن إدراكه للمطلق مستحيل، وأن عدم إدراكه للمجهول لا ينفي وجوده في ضمير الغيب المكنون، وأن عليه أن يكل الغيب إلى طاقة أخرى غير طاقة العقل، وأن يتلقى العلم في شأنه من العليم الخبير الذي يحيط بالظاهر والباطن، والغيب والشهادة. وهذا الاحترام لمنطق

(١) لا يعني الاتصال المباشر بالخالق ما عناه من قال بوحدة الوجود، وإنما يعني اتصال تذلل واستسلام وانقياد و عبودية للروح سامية تتعامل فيه الروح مع خالقها بقوانين الروح والإيمان بالغيب لا بقوانين المادة والحس وحدها.

العقل في هذا الشأن هو الذي يتحلى به المؤمنون، وهو الصفة الأولى من صفات المتقين.

لقد كان الإيمان بالغيب هو مفرق الطريق في ارتقاء الإنسان عن عالم البهيمية. ولكن جماعة الماديين في كل الزمان، كجماعة الماديين في كل زمان يريدون أن يعودوا بالإنسان القهقرى إلى عالم البهيمية الذي لا وجود فيه لغير المحسوس! ويسمون هذا «تقدمًا» وهو النكسة التي وقى الله المؤمنون إياها، فجعل صفتهم المميزة صفة: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ والحمد لله على نعائمه، والنكسة للمنتكسين والمرتكسين»[1].

ومن كرم الله علينا أن راعى ضعفنا. قال تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء: ٢٨]. وراعى جهلنا وخاصة بقر ماتحملناه فقال تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢]. فلم يدعنا لجهلنا وعجزنا وظلمِنا فأرسل إلينا رسله، وأنزل عليهم كتبه، بل ساق لنا الأدلة والبراهين الدالة على وجوده، وكذلك الدالة على وحدانيته وتفرده، والدالة كذلك على كمال صفاته العلى وأسمائه الحسنى، بل ساق لنا من الأدلة والبراهين والمعجزات ما يثبت لنا صدق أنبيائه ورسله، وصدق ما جاءوا به من كتب من عند الله، وسرد من الأدلة والبراهين ما يورث القلوب اليقين بلقائه بما فيه من أحداث جسام وانقلاب كوني وحساب للعباد وسؤال على كل ما كسبوا وما اكتسبوا حتى مثاقيل الذر من أعمالهم. قال تعالى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٧]. بل أمرنا بالإيمان بملائكته الحفظة منهم والكتبة وحملة العرش وغيرهم ممن لهم دور كبير في حياة البشر وإدارة شئون هذا الكون المحيط بنا، وعلمنا تعالى ما نحتاج إليه من أمور القدر وقواعد التدبير لهذا الكون بما فيه بمن فيهم الإنسان نفسه، فجمع لنا بذلك أصول الإيمان الستة، والتي وردت في حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما في

(١) في ظلال القرآن (١/ ٣٩- ٤٠).

الصحيح حيث رواه مسلم فقال بسنده: «عَنْ يَحْيَى بْنِ يَعْمَرَ[١] قَالَ: كَانَ أَوَّلَ مَنْ قَالَ فِي الْقَدَرِ بِالْبَصْرَةِ مَعْبَدٌ الْجُهَنِيُّ[٢] فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَحُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحِمْيَرِيُّ[٣] حَاجَّيْنِ أَوْ مُعْتَمِرَيْنِ فَقُلْنَا: لَوْ لَقِينَا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ الله ﷺ فَسَأَلْنَاهُ عَمَّا يَقُولُ هَؤُلاَءِ فِي الْقَدَرِ. فَوُفِّقَ لَنَا عَبْدُ الله بْنُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ دَاخِلًا الْمَسْجِدَ فَاكْتَنَفْتُهُ أَنَا وَصَاحِبِي أَحَدُنَا عَنْ يَمِينِهِ وَالآخَرُ عَنْ شِمَالِهِ فَظَنَنْتُ أَنَّ صَاحِبِي سَيَكِلُ الْكَلاَمَ إِلَيَّ فَقُلْتُ: أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ إِنَّهُ قَدْ ظَهَرَ قِبَلَنَا نَاسٌ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ وَيَتَقَفَّرُونَ[٤] الْعِلْمَ -وَذَكَرَ مِنْ شَأْنِهِمْ- وَأَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنْ لاَ قَدَرَ وَأَنَّ الأَمْرَ أُنُفٌ. قَالَ: فَإِذَا لَقِيتَ أُولَئِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنِّي بَرِيءٌ مِنْهُمْ وَأَنَّهُمْ بُرَآءُ مِنِّي، والذي يَحْلِفُ بِهِ عَبْدُ الله بْنُ عُمَرَ لَوْ أَنَّ لأَحَدِهِمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا فَأَنْفَقَهُ مَا قَبِلَ اللهُ مِنْهُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ. ثُمَّ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ لاَ يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ وَلاَ يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الإِسْلاَمِ. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**الإِسْلاَمُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله وَتُقِيمَ الصَّلاَةَ وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ وَتَصُومَ رَمَضَانَ وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا**». قَالَ صَدَقْتَ. قَالَ: فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِيمَانِ. قَالَ: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِالله وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**». قَالَ: صَدَقْتَ. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِحْسَانِ. قَالَ: «**أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**». قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ. قَالَ: «مَا

---

(١) يحيى بن يعمر البصري، أبو سليمان ويقال أبو سعيد ويقال أبو عدي نزيل مرو وقاضيها تابعي من الطبقة الوسطى قبل ١٠٠هـ، روى له أصحاب الكتب الستة ووثقه ابن حجر والذهبي.

(٢) معبد الجهني تابعي روى عن عمر وعثمان وحذيفة وطائفة من الصحابة وهو مرسل لم يلقهم، وهو أول من تكلم في القدر بعد رجل نصراني يقال له سوسن، وأخذ غيلان عن معبد، فقتله الحجاج.

(٣) حميد بن عبد الرحمن الحميري البصري، تابعي من الطبقة الوسطى روى له أصحاب الكتب الستة ووثقه ابن حجر وقال الذهبي قال بن سيرين هو أفقه أهل البصرة.

(٤) يتقفرون العلم: يطلبونه ويتتبعون أثره فيقال فلان يتقفر الشيء إذا طلبه واجتهد في البحث عنه، وقيل يجمعونه، والبعض قدم الفاء على القاف أي يتفقرون والأصح الأول.

الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ». قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا. قَالَ: «أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا[1] وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ». قَالَ: ثُمَّ انْطَلَقَ فَلَبِثْتُ مَلِيًّا ثُمَّ قَالَ لِي: «يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟». قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ»[2]. وجل هذه الأمور سيقت في صورة حوارات ليأخذ الحق تبارك وتعالى من خلالها بنواصي العباد إلى الحق وإلى طريقه المستقيم ويخرجهم من الظلمات إلى النور. قال تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١]. وقد عرض القرآن الكريم هذه الأمور كلها من خلال الزمن كله؛ الماضي من خلال قصص الأنبياء وحواراتهم مع أقوامهم وهم أصحاب الحضارات في زمانهم، ومن خلال بعض الأحداث التاريخية، والحاضر من أفعال العباد وشبهاتهم ومحاورتهم والرد عليهم وتصحيح تصوراتهم ومعتقداتهم، والمستقبل من خلال مواقف العباد يوم القيامة وما بعدها من نعيم أو عذاب في صورة حوارات بين الرسل وأقوامهم، أو بين المؤمنين وبعضهم، أو مع الكفار وأهل النار، أو بين الكفار بعضهم مع بعض ممن كانوا أصحاب حضارات في زمانهم، وبيان ذلك فيما يأتي:

١- الحوار في إثبات وجود الله ووحدانيته.

أولا: الحوار في إثبات وجود الله.

من أهم موضوعات الحوار في القرآن الكريم موضوع إثبات وجود الله ووحدانيته، ووجود الله تبارك وتعالى حقيقة لا تقبل النقاش والجدل لأنها ضرورة تسري في الأحاسيس والمشاعر وتتغلغل في أعماق النفس الإنسانية، وبها الفطرة ناطقة، ولم يبق بعيدا عن هذه

---

(١) تلد الأمة ربتها: وفي رواية ربها وفي رواية بعلها، يعني السراري ومعنى ربها وربتها سيدها ومالكها وسيدتها ومالكتها قال الأكثرون من العلماء هو إخبار عن كثرة السراري وأولادهن، وقيل: معناه أن الإماء يلدن الملوك فتكون من جملة رعيته وهو سيدها. وقيل: معناه أنه تفسد أحوال الناس فيكثر بيع أمهات الأولاد فيكثر ترددها بين أيدي المشترين فيشترها ولدها وهو لا يدري وقيل غير ذلك .

(٢) رواه البخاري في كتاب الإيمان رقم (٣٧)، ورواه مسلم في كتاب الإيمان باب معرفة الإيمان والإسلام والقدر رقم (٨)، ورواه أصحاب السنن الأربعة، وأحمد، والدار قطني، والبيهقي

الساحة الربانية إلا من أغلق قلبه دون أنوار الله وأصم أذنيه عن ندائه، ونكس بفطرته وعقله وقلبه فصار يهذي وخرج عن كل المسلمات.

بل كل الدعوات والحوارات التي وجهت لكل أصحاب الحضارات على ألسنة الأنبياء وأتباعهم حاورتهم في هذا الأصل العظيم من أصول الإيمان وهو إثبات وجود الله ووحدانيته.

الحوار مع الدهريين والماديين والملاحدة من أصحاب الحضارات:

وعلى طريقة القرآن ومنهجه في الاستدلال يحاور القرآن بأسلوبه الدهريين والماديين والملاحدة من أصحاب الحضارات، ونرى كيف حطم القرآن الأغلال التي تحول بينهم وبين معرفة الله، وبَقِيَت أدلته في إثبات وجود الله صخرة صارمة تحطمت عليها أفكار هؤلاء قديما كما تتحطم عليها أفكارهم كلما جد الزمان وتقلب الملوان، كما نرى حوار القرآن لأشهر من تحدث عنهم من الملحدين والمتألهين من أصحاب الحضارات «فرعون والنمرود» وكل منهما ادعى أنه رب الناس وإله من دون الله عز وجل[(١)].

«الوحي الإلهي يحدثنا عن الله تبارك وتعالى من حيث هو ذات حقيقية، وله وجود حقيقي لا يشبهه شيء، ومن ثم فهو ليس معنى من المعاني الذهنية، ولا قانونًا كالقوانين الكونية المنبثة في الأحياء والأشياء، بل كل ما خطر ببالك فالله فوق ذلك لقوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]»[(٢)].

وهو تعالى كما وصف ذاته فقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحديد: ٣].

هو الأول الذي كان ولم يكن معه شيء، وهو وحده الذي جاء للخلق منه كل شيء. قال تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴾ [النحل: ٥٣].

وهو الآخر بعد كل شيء، والذي يبقي ولا يبقي معه شيء كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ

---

(١) مناهج الجدل في القرآن الكريم للدكتور/ زاهر بن عواض الألمعي (ص١٢٥-١٢٨) بتصرف.

(٢) المنهاج القرآني في التشريع للدكتور / عبد الستار فتح الله سعيد (ص٣٢٧).

ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧].

وكما قال ورقة بن نوفل ﷺ:

لا شيء مما ترى تبقى بشاشته يبقى الإله ويفنى المال والولد[1]
لم تغن عن هرمز يومًا خزائنه والخلد حاوله عادٌ فما خلدوا
ولا سليمان إذ تجري الرياح له والإنس والجن فيما بينها ترد
حوض هنالك موروردٌ بلا كذب لا بد من ورده يومًا كما وردوا

وهو الظاهر الذي ليس فوقه شيء، فهو تعالى يعلو ولا يعلى عليه، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ [الرعد: ٢]، وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام: ١٨]، وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ [الأنعام: ٦١].

وهو الباطن الذي ليس دونه شيء، فلا يخفى عليه من أمر الخلق شيء كما قال تعالى عن ذاته: ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ [غافر: ١٩]، وقال تعالى: ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ٥٩-٦٠]، وقال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ

---

(١) ذكر ذلك الألوسي في تفسيره روح المعاني (١٩/ ١٤٩)، وعمدة القاري باب بدء الوحي (١/ ٦٤)، وفي الزهد الكبير للبيهقي نسب البيت الأول لعمر بن الخطاب (٢/ ١٨٨).

﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٢٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [فاطر: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحجرات: ١٨].

وقال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا﴾ [الجن: ٢٦].

وهو سبحانه بذاته حقيقي لا يدرك بالبصر كما قال تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

ولكنه تعالى يعرف بآثاره في كل شيء، وتقوم كل ضروب الأدلة على وجوده، وتفرده، واستحقاقه لكل صفات الكمال.

دليل وجوده:

أ- **بداهة العقل**: وهي عند كل إنسان قاضية أن لكل مصنوع صانعا، ولكل مخلوق خالقا، ولكل حادث موجدا، والحق تبارك وتعالى يلزم الناس بتقرير هذه البداهة حيث يقول: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٥-٣٦]، وقد ذكر القرآن الكريم قول نبي الله موسى لفرعون حين سأله: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٤٩-٥٠].

والله تعالى يُلجئهم في النص الأول إلى إقرار الحق فلا يستطيع أحدهم إنكار وجوده كمخلوق، وادعاء أن الخلق أُنف وهو قول الدهريين(١) والطبائعيين(٢) والماديين(٣)

---

(١) الدهريين: الذين ادعوا ألا إله موجود وأنهم خلقوا من ذكر وأنثي وأنهم لا يهلكهم إلا الدهر، استغنوا بما وصلوا إليه من علوم مادية وأنكروا ما وراء ذلك من الغيب والعلوم الروحية.

(٢) الطبائعيين: من نسبوا الخلق إلي الطبيعة وأنها هي التي أوجدت هذا الكون وتدبر أمره.

(٣) الماديين: أصحاب فكرة قديمة قال بها قديما ديموقريطس من الفلاسفة وسماها بمبدأ الديالكتيك أو =

والملاحدة[١] من أصحاب الحضارات على مر العصور، والحوار معهم لا يخلو من اعتراضات ثلاثة:

١- إما أن يكون كل شيء قد وجد من دون علة له أو سبب في الإيجاد.

٢- وإما أن يكون كل شيء قد أوجد نفسه، وهذان الافتراضان تمنعهما بداهة العقول.

٣- والافتراض الثالث: أن كل شيء موجود لابد له من موجد ينتهي إليه الخلق والتدبير وهو الله تعالى.

فثبت عن طريق هذا الحصر قيام البرهان القطعي على وجود الله تعالى وإبطال دعوى هؤلاء المنكرين، فلا يستطيع أحدهم الادعاء أنه خلق من غير شيء ولا ادعاء أنه خلق نفسه فيلزمه التسليم والاعتراف بوجود قوة عليا خلقتهم.

والنص الثاني يحملهم على الإقرار له بالخلق من خلال التباين الشديد بين الخلائق مع جمال وكمال وإحسان كل مخلوق على حدة، مضافا لذلك هدايته لأداء ما خلق من أجله، كما جاء في الحديث «**كل ميسر لما خلق له**»[٢].

بل إن كل موجود دليل على وجود الموجد كما قال الأعرابي وقد سئل عن الدليل على وجود الله فقال: «إن البعرة تدل على البعير، وأثر الأقدام يدل على المسير، أفسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، أفلا يدل ذلك على السميع الخبير»، وإذا كان الله تعالى وحده هو الخالق فهل يستوي الخالق بالمخلوق، قال تعالى: ﴿ **أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ** ﴾ [النحل: ١٧].

=

نظرية (ترابط الوجود) وهي فكرة الماديين المحدثين أمثال لينين الذي سماها «الدفاتر الفلسفية» كما وضع لها ستالين «المادية الجدلية والمادية التاريخية»، وقد حمل لواء هذه الفكرة كارل ماركس.

(١) الملاحدة: من أنكروا وجود اله مدبر لهذا الكون.

(٢) رواه البخاري عن عمران ﷺ في كتاب قول الله: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ والتوحيد رقم (٧٥٥١)، ورواه مسلم عنه في القدر باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه رقم (٢٦٤٩)، وأبو داود في السنة باب في القدر رقم (٤٧١١)، والترمذي في التفسير (٣٣٩٧)، وأحمد في مسند الصديق (٢٠).

ب- **الفطرة**: وهذا الدليل مركوز في النفس البشرية ومقرر بقوله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٣٠].

والنبي ﷺ يقرر ذلك في حديثه حيث قال: «**كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**»(١)، «ويؤخذ من هذا أن الله تعالى قد ركز في طبع كل إنسان وضميره وكيانه الإيمان بقوة عليا لها الهيمنة والتدبير، ولكنه بالهوى والجهل، أو بطول إلفه للباطل تنتكس فطرته ويعلوها غشاء ثقيل من الران الذي يحجب صفاءها، ويطمس نورها، ويلتوي بها عن مسارها الصحيح، ومع هذا تبقى تحت هذا الركام(٢) لا يستطيع شيء نسخها أو إزالتها ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾ [الروم: ٣٠]، ودليل ذلك أنها تظل تلح على صاحبها حتى يتخذ لنفسه معبودًا ما ولو بالباطل، ولكنه حين يجابه بنازلة عاصفة تهدد كيانه ووجوده تنجاب عنه حجب الضلالات، ويكشط الران تحت حرارة البلاء، فتجد الفطرة الكامنة فرصتها للظهور واتخاذ الطريق الصحيح»(٣)، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [يونس: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ

---

(١) الحديث رواه البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ كتاب الجنائز باب ما قيل في أولاد المشركين رقم (١٣٥٨) وغيره، ومسلم عنه باب معنى كل مولود يولد على الفطرة رقم (٢٦٥٨) كتاب القدر، والترمذي رقم (٢٢٨٧)، وأبو داوود رقم (٤٧١٦)، وفي الموطأ رقم (٥٧٥)، وأحمد، والحميدي، والبيهقي.

(٢) الركام: المتراكم وقيل الكثير وقيل الضخم وفي القرآن عن السحاب (ثم يجعله ركاما) أي بعضه على بعض.

(٣) المنهاج القرآني في التشريع للدكتور / عبد الستار فتح الله سعيد (ص٣٢٩).

صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٤٠-٤١]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٦٣-٦٤].

ج - الشعور الباطني:

إذا كان الماديون والطبيعيون من أصحاب الحضارات يتظاهرون بإنكار وجود الله فإن هذا الوجود الإلهي يفرض نفسه على أحاسيسهم ومشاعرهم ويقولون به من حيث لا يشعرون، فإنهم يقولون بتفاعل الماديات وتأثير بعضها في بعض، وهذا يعني أن الشيء لا يستقل بحركته دون مؤثر خارجي، إنهم يخضعون نظام هذا الكون لقوانين الجاذبية في تنظيم أبعاده بحيث يكون التناسب والتوازن بين الموجودات فلا يختل هذا النظام العام للكون، فكأنهم يقرون بضرورة وجود قوة تسير هذه القوى الكونية، وسواء أضافوا هذه القوة إلى قانون العلية والسببية للكون أو قانون التفاعل المادي لتلك القوى كما يرددون، فإن هذا إحساس بوجود خالق مدبر لهذا العالم ولكنهم يكابرون فطرهم وأحاسيسهم فيلجئون إلى القول بأن وجود العالم كان مصادفة واتفاقا، وزعموا أن العالم لم يزل موجودا كذلك بنفسه بلا صانع، ولم يزل الحيوان من النطفة والنطفة من الحيوان كذلك كان وكذلك يكون أبدا[1]، قال تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ﴾ [الأعلى: ١-٤].

وقال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: ٣١-٣٢].

د- **كل شيء خلقه الله تعالى:** كل ما خلق الله تعالى يدل عليه، فله تعالى في كل شيء آية تدل

(١) المنقذ من الضلال للأمام أبى حامد الغزالي (ص٧٦) بتصرف يسير .

على أنه الواحد سبحانه وتعالى، لذا دعا الحق تبارك وتعالى عباده لطول النظر في كل ما خلقه تعالى من حولهم؛ فكل مخلوق لا محالة سيدلهم على عظمة الخالق وجلاله وجماله. قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٦-٨].

ذكر القرآن الكريم قول نبي الله هود لقومه: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ۝١٣٢ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ۝١٣٣ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾ [الشعراء: ١٣٢-١٣٤]، وقول نبي الله صالح لقومه: ﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٤].

وهذا النظر مع الفكر أحد مُورّثات اليقين. قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٥].

بل إن النبي محمدًا ﷺ يعلمنا أن كل شيء خلقه الله تعالى فيه من آيات الله ما يدعو لتسبيح الله وتحميده وتوحيده وتكبيره ونسبة الحول والقوة له وحده تعالى، لذا كان الحبيب ﷺ يقول إذا أصبح وإذا أمسى كل يوم: «**سبحان الله عدد ما خلق في الأرض وعدد ما خلق في السماء وعدد ما خلق بين ذلك وعدد ما هو خالق، والحمد لله مثل ذلك، ولا إله إلا الله مثل ذلك، والله أكبر مثل ذلك، ولا حول ولا قوة إلا بالله مثل ذلك**»(١).

والمقصود في الحديث ليس مجرد العدد بل المقصود أن له تعالى من الآيات في كل مخلوق ما يدعو لتسبيحه وتحميده وتوحيده وتكبيره ونسبة الحول والطول والقوة له وحده عز وجل.

---

(١) الحديث رواه أبو داود عن سعد بن أبي وقاص ﷺ في كتاب الوتر باب التسبيح بالحصى رقم (١٥٠٢)، (٥/ ١٥)، والترمذي عنه في الدعوات رقم (٣٩١٢)، والبيهقي وابن حبان والحاكم في المستدرك وقال صحيح، والبزار وأبو يعلى.

قال أبو العتاهية:

ولله في كـــل تحـريكـــة	وتـسـكينة في الـــورى شاهـــد
وفى كـــل شـــيء لـــه آيـــة	تـــدل عـــلى أنـــه الـواحـــد[(١)]

وإذا نظرنا إلى النصوص القرآنية لم نجد هدفها يوما من الأيام إثبات وجود الله تعالى لأن الإيمان بوجود الله ضرورة حتمية وبدهية، ولعلنا نلمح هذه الحقيقة ونحن نرى القرآن الكريم وهو يرد على هؤلاء الملحدين بصرف النظر عن ادعائهم الكاذب المبنى على الجهل ولا يناقشهم في جهلهم وتفاهة تفكيرهم، إنما يهددهم وهو يرسم لهم مشهدًا مرعبًا وهم معروضون أمام الله جاثون مع الجاثين منتظرون ساعة الفصل، يقول القرآن: ﴿ وَقَالُواْ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٤-٢٨].

بل إن آيات سورة الجاثية إلى آخرها لا تكتفي بالرد على دعوى الدهريين فحسب، ولكنها تمضي في تهديدهم بتصوير مشاهد القيامة المفزعة، وأنهم لا يخرجون من النار ولا يستعتبون؛ وما ذلك إلا لأن هذا الوهم محض كِبْرٍ مسيطر على النفوس، أعمى الفطرة عن الاعتراف بحقيقة الوجود الإلهي مما جعل السورة تختم بهذا القول الجامع: ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الجاثية: ٣٦-٣٧].

والإمام الشهرستانى يلخص مُدّعائهم في قولهم: ﴿ نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ﴾ إشارة إلى الطبائع المحسوسة في العالم السفلى، وقصرًا للحياة والموت على تركبها وتحللها، فالجامع

(١) ديوان أبى العتاهية (ص١٢٢).

هو الطبع، والمهلك هو الدهر[١].

أما دعوى هؤلاء الدهريين بأنه ليس هناك خالق موجود، وأنهم وجدوا في الحياة عن طريق التوالد بين الذكر والأنثى، وسيموتون بفقدان الحياة عندما يتعرض الواحد منهم لشيء من نوازل الدهر، فمثل هذه الدعوى رد عليها القرآن ورد تلك المقدمات التي أوردوها دليلا لدعواهم. فقد رفض مقدماتهم بأمرين:

١) بنفي العلم عنهم فيما يتعلق بهذا الادعاء كما قال القرآن ﴿ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ﴾ [الجاثية: ٢٤]، والنفي هنا يفيد العموم لأنه نكرة في سياق النفي فيعم.

٢) إثبات الظن والتخرّص في دعواهم ﴿ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾ [الجاثية: ٣٢].

﴿ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾ [النجم: ٢٨].

فقد نفى القرآن الكريم أن تكون دعواهم مستندة إلى دليل، وإذا فقد الدليل في الدعوى أو طعن فيه بشيء من المطاعن المعتبرة سقط الاستدلال به، وإذا منعت المقدمة بطلت النتيجة. كما رد عليهم القرآن في غير هذه الآية بإثبات وجود الله عن طريق البراهين القطعية[٢].

ومن لطائف المناظرات التي وقعت مع بعض الدهريين ما يحكى عن الإمام أبى حنيفة رحمه الله تعالى أن قومًا من أهل الكلام أرادوا البحث معه في تقرير وجود الله تعالى، فقال لهم: «أخبروني قبل أن نتكلم في هذه المسألة، عن سفينة في نهر دجلة تذهب فتمتلئ من الطعام والمتاع وغيره بنفسها وتعود بنفسها فترسى بنفسها وتفرغ وترجع كل ذلك من غير أن يدبرها أحد». فقالوا: هذا محال لا يمكن أبدًا، فقال لهم: «إذا كان هذا محالا في سفينة، فكيف في هذا العالم كله علوه وسفله». وينسب هذا إلى غير أبى حنيفة[٣].

---

(١) الملل والنحل للشهرستانى (٢/ ٢٣٥) بتصرف.

(٢) مناهج الجدل في القرآن الكريم للدكتور / زاهر عواض الألمعي (ص ١٣٠).

(٣) شرح العقيدة الطحاوية (ص٢١).

وإذا تأملت فيما يحيط بك من الموجودات الظاهرة عرفت عن طريق الضرورة الحتمية بأن هذا العالم لم يكن وليد المصادفة والاتفاق وإنما وجد بقدرة قادر وحكمة مدبر فاعل، ألا ترى أنك لو نظرت إلى لوحة جميلة قد رسمت عليها مناظر خلابة ألا يتبادر إلى ذهنك أن هذه اللوحة قد مرت عليها يد فنان خبير بتناسق الألوان والأذواق؟! أما أنها قد رسمت نفسها بنفسها ووجدت على هيئتها ابتداء بطريق المصادفة؟! فإن هذا ما لم يقل به أحد.

ولو نظرت إلى قصر مشيد قد تناسق بناؤه وأحكمت أركانه ألا يتبادر إلى ذهنك بأن هذا تصميم مهندس بارع في الهندسة المعمارية؟ أم ترى أن هذا القصر وجد على هيئته بطريق الاتفاق؟ أم أوجدته عوامل الطبيعة؟ أم لا بد من تصميم خبير وقدرة عليم بصير بفن الإنشاء والتعمير التي يتساوى في إدراكها بصير بفن الإنشاء، فإذا كانت هذه الأمور الظاهرة التي يتساوى في إدراكها كل مميز من بني الإنسان لم توجد إلا بإيجاد موجد خبير فهل يعقل أن يوجد هذا الكون بهذه الدقة والإحكام بما فيه من أجرام فضائية وعوالم متنوعة دون أن يكون له خالق قدير وفاعل مريد ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠][1].

طريقة القرآن في الرد على الدهريين والماديين والملاحدة والطبيعيين من أصحاب الحضارات: ذكر ابن رشد أن طريقة القرآن الكريم في إثبات وجود الله عز وجل تنحصر في طريقين وهما:

١- طريق الوقوف على العناية بالإنسان وخلق جميع الموجودات من أجله، ولنسمى هذا بدليل العناية.

٢- ما يظهر من اختراع جواهر الأشياء الموجودات مثل اختراع الحياة في الجماد والإدراكات الحية والعقل، ولنسمى هذا دليل الاختراع.

ثم قال ابن رشد: «ولذلك كان واجبًا على من أراد معرفة الله حق معرفته أن يعرف جواهر الأشياء ليقف على الاختراع الحقيقي في جميع الموجودات، لأن من لم يعرف حقيقة الشيء لم يعرف حقيقة الاختراع، وإلى هذا الإشارة بقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

(١) مناهج الجدل فى القرآن الكريم للدكتور/ زاهربن عواض الألمعى (ص١٣١-١٣٢).

﴿وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، وكذلك أيضًا من وقف على معنى الحكمة في وجود موجود، أعنى معرفة السبب الذي من أجله خلق، والغاية المقصودة به كان وقوفه على دليل العناية أتم، فهذان الدليلان هما دليلا الشرع. وذكر أن الآيات الواردة في القرآن المنبهة على الأدلة المفضية إلى وجود الصانع عز وجل تنحصر في هذين الجنسين من الأدلة، وذلك بين لمن تأمل الآيات الواردة في الكتاب العزيز في هذا المعنى، وذلك أن الآيات التي في الكتاب العزيز في هذا المعنى إذا تصفحت وجدت على ثلاثة أنواع:

١- آيات تتضمن التنبيه على دلالة العناية.

٢- آيات تتضمن التنبيه على دلالة الاختراع.

٣- آيات تجمع الأمرين من الدلالة جميعًا.

فأما الآيات التي تتضمن دلالة العناية فقط فمثل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ۝٨ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝١٢ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝١٣ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ۝١٤ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝١٥ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾ [النبأ: ٦-١٦]. ومثل قوله عز وجل: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ [الفرقان: ٦١]. ومثل هذا كثير في القرآن الكريم.

وأما الآيات التي تتضمن دلالة الاختراع فقط فمثل قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق: ٥-٦]، ومثل قوله عز وجل: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: ١٧]، ومثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ۝٧٣﴾ [الحج: ٧٣]. ومن هذا قوله تعالى حكاية عن إبراهيم: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩]. إلى غير ذلك من الآيات التي لا تحصي.

وأما الآيات التي تجمع الدلالة فهي كثيرة بل هي الأكثر. مثل قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ۝٢١ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١-٢٢]، فإن قوله: ﴿ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ ﴾ تنبيه على دلالة الاختراع. وقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا ﴾ تنبيه على دلالة العناية. ومثل هذا قوله تعالى: ﴿ وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبّٗا فَمِنۡهُ يَأۡكُلُونَ ﴾ [يس: ٣٣]. وقوله تعالى: ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٩١]. وأكثر الآيات الواردة في هذا المعنى يوجد بها النوعان من الأدلة»[(١)].

ولقد ساق القرآن الكريم الأدلة والبراهين الدالة على وجوده عبر الأزمان كلها ماضيها وحاضرها ومستقبلها. ومن أمثلة ذلك ما يأتي:

١- في الماضي:

ذكر القرآن الكريم أدلة وجوده على ألسنة أنبيائه والصالحين من عباده من خلال حواراتهم لأقوامهم ومخالفيهم وجلهم أصحاب حضارات. ومثال ذلك حين يصور لنا هذا الحوار عبر الزمان كله فيجعل الأنبياء والرسل جميعا في جهة وأقوامهم في الجهة المقابلة كما ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ۝٩ قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرَكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ۝١٠ قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ

(١) الكشف عن مناهج الأدلة فى عقائد الملة لابن رشد (ص٦٥- ٦٩).

يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ [إبراهيم: ٩-١٤]. ومن ذلك قول كل نبي لقومه: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾ [الأعراف: ٥٩]. وكقوله تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ ﴾ [هود: ٦١]. ومن ذلك قول العبد الصالح لصاحب الجنتين وهو يحاوره كما حكاه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٣٧-٣٩]. ومن ذلك أيضًا قول مؤمن آل فرعون: ﴿ ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ ﴾ [غافر: ٤١-٤٣].

٢- في الحاضر:

لقد جاء القرآن الكريم بالأدلة الكونية في الأنفس والآفاق شاهدة بوجود الله تعالى، حاور بها أصحاب الحضارات في زمن نزوله وكل من يأتي بعدهم، فقال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت: ٥٣]، وجاءت الآيات متمثلة في بدائع وإحكام تصريفه لشئون خلقه واضحة في نظام الكائنات وسائر المخلوقات، وقد وجدت هذه المخلوقات على هيئة صالحة لاستخدام الإنسان لها وتذليلها له وتسخيرها للانتفاع بها، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ [الملك: ١٥]. وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٩]. وقال تعالى: ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ

ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية: ١٢-١٣]. كما أن خلق الإنسان نفسه في تركيب بدنه وأجزائه وعجائب تكوينه وإنشائه على هيئة تدعو إلى الدهشة وتأخذ بالألباب والعقول يحال معها القول بأنها أبدعت نفسها بنفسها أو على سبيل المصادفة من غير صانع حكيم مبدع أوجدها وأبدعها وصورها بعنايته وحكمته وهو الله تعالى وعز وجل. قال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الواقعة: ٥٨-٦١]. وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [العنكبوت: ١٩-٢٠]. وقال تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴾ [الطارق: ٥-٩]. وليس خلق الإنسان وحده هو الدال على وجوده بل خلق كل ما حوله كما قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ [الغاشية: ١٧-٢٠]. وقال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴾ [ق: ٦-١١]. وقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الحج: ٧٣]. وقال تعالى عن الدواب: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [النور: ٤٥]. وقال تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ

إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٨]. وقال تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [هود: ٦]. وعن الطير قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [النحل: ٧٩]. وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴾ [الملك: ١٩]. وعن الجنان والزرع قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأنعام: ١٤١]. وعن تسخير كثير من المخلوقات لنا قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ [الرعد: ٢]. وقال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [النحل: ١٢]. وعن الرياح وما حملت به من خيرات قال تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴾ [الحجر: ٢٢]. وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ [النور: ٤٣-٤٤]. وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴾ [الرعد: ١٢-١٣]. وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ [فاطر: ٢٧-٢٨]. وعن الأرض وما

وضع فيها من نعم وأسرار قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الرعد: ٣]، وقال تعالى: ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴾ [الحجر: ١٩-٢٠]. وقال تعالى: ﴿ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [النمل: ٦١]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [فاطر: ١٢]، وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ [الفرقان: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ [فصلت: ٩-١٠]. إلى غير ذلك من الآيات.

٣-في المستقبل:

وصف القرآن الكريم لنا صورا ومواقف الناس وخاصة أصحاب الحضارات يوم القيامة وتخاصمهم وتحاورهم وخاصة بعد أن استبانت لهم الحقائق وانجلت عنهم الحجب وانكشفت عنهم الأغطية وصارت المحاورة على بينة وبصيرة كما قال تعالى: ﴿ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ [ق: ٢١-٢٢]، وقال تعالى عن لحظة دخول أهل النار منهم النار: ﴿ قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٨-٣٩].

بل إن هذه الحقائق قد تنكشف لبعض من عجل الله تعالى لهم شيئًا من العقوبة في الدنيا لحظة وقوع العقوبة كما قال تعالى عن فرعون: ﴿ ۞ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝٩٠ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾ [يونس: ٩٠-٩١].

وقص القرآن الكريم لنا قصة أصحاب الجنة حين بيتوا نية حرمان المساكين من حقهم في الزكاة والصدقات فقال تعالى: ﴿ إِنَّا بَلَوۡنَٰهُمۡ كَمَا بَلَوۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ إِذۡ أَقۡسَمُواْ لَيَصۡرِمُنَّهَا مُصۡبِحِينَ ۝١٧ وَلَا يَسۡتَثۡنُونَ ۝١٨ فَطَافَ عَلَيۡهَا طَآئِفٞ مِّن رَّبِّكَ وَهُمۡ نَآئِمُونَ ۝١٩ فَأَصۡبَحَتۡ كَٱلصَّرِيمِ ۝٢٠ فَتَنَادَوۡاْ مُصۡبِحِينَ ۝٢١ أَنِ ٱغۡدُواْ عَلَىٰ حَرۡثِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰرِمِينَ ۝٢٢ فَٱنطَلَقُواْ وَهُمۡ يَتَخَٰفَتُونَ ۝٢٣ أَن لَّا يَدۡخُلَنَّهَا ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكُم مِّسۡكِينٞ ۝٢٤ وَغَدَوۡاْ عَلَىٰ حَرۡدٖ قَٰدِرِينَ ۝٢٥ فَلَمَّا رَأَوۡهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ۝٢٦ بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ ۝٢٧ قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ لَوۡلَا تُسَبِّحُونَ ۝٢٨ قَالُواْ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٢٩ فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَلَٰوَمُونَ ۝٣٠ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ۝٣١ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبۡدِلَنَا خَيۡرٗا مِّنۡهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ۝٣٢ كَذَٰلِكَ ٱلۡعَذَابُۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴾ [القلم: ١٧-٣٣].

وقال تعالى عن الغافلين الذاهلين عن علامات الساعة وأشراطها: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ۝٩٦ وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٩٦-٩٧].

وأما عن مواقف الناس يوم القيامة فقد قال الله تعالى: ﴿ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢٧ بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُۖ وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ۝٢٨ وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ۝٢٩ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ قَالَ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴾ [الأنعام: ٢٧-٣٠].

وقال تعالى عن حال أهل النار: ﴿ وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٤-٧٨].

وقال تعالى عنهم: ﴿ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُواْ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴾ [ص: ٥٩-٦٤]، إلى غيرها من الآيات.

- **من أمثلة الملحدين الماديين المنكرين لوجود الله:**

١- **النمرود بن كنعان:** والذي ادعى لنفسه القدرة على الإحياء والإماتة وحاوره نبي الله إبراهيم عليه السلام وحاجه فأفحمه فبهت الذي كفر، وعن هذا قال الله عز وجل في القرآن الكريم: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، وقد أشار ابن كثير في تفسيره إلى أن النمرود أراد أن يدعي لنفسه مقام الإحياء والإماتة عنادًا ومكابرة ويوهم أنه الفاعل لذلك وأنه هو الذي يحيي ويميت كما افتري فرعون بمثل ذلك في قوله: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ۖ فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [القصص: ٣٨]. ولهذا قال له إبراهيم عندما ادعى هذه المكابرة: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ ﴾ أي إذا كنت كما تدعي أنك تحيي وتميت فالذي يحيي ويميت هو الذي يتصرف في الوجود كيف يشاء في خلق ذواته وتسخير كواكبه، فإن هذه الشمس تبدو كل يوم من المشرق فإن كنت إلها -كما ادعيت- تحيي وتميت فأت بها من المغرب، فلما علم عجزه وانقطاعه وأنه لا يقدر على المكابرة في هذا المقام بهت، أي أخرس ولم يتكلم وقامت عليه الحجة.

ثم قال ابن كثير رحمه الله: «وهذا التنزيل على هذا المعنى أحسن مما ذكر كثير من المنطقيين أن عدول إبراهيم عن المقام الأول إلى المقام الثاني من دليل إلي أوضح منه، ومنهم من قد يطلق عبارة ترديه، وليس كما قالوه بل المقام الأول يكون كالمقدمة للثاني ويبين بطلان ما ادعاه نمرود في الأول والثاني ولله الحمد والمنة. وقد ذكر السدي أن هذه المناظرة كانت بين إبراهيم والنمرود بعد خروج إبراهيم من النار ولم يكن قد اجتمع بالملك إلا في ذلك اليوم فجرت بينهما هذه المناظرة»[1].

٢- **فرعون مصر**: والذي ادعى لنفسه الربوبية أمام الناس كما حكي الله تعالى عنه ذلك فقال: ﴿ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴾ [النازعات: ٢٣-٢٥].

وادعى الإلوهية أمام الملأ وهم خاصته كما حكاه عنه القرآن الكريم فقال: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [القصص: ٣٨].

بل إنه خدع قومه واستخفهم حين أوهمهم أن الإلهية بتملك المادة والسلطان كما حكي القرآن عنه ذلك في قول الله تعالى: ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [الزخرف: ٥١]، وهذه المغالطة كان يعلم فرعون وقومه أن الحقيقة في غيرها لكن الكبر قتلهم كما قال تعالى عنهم: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [النمل: ١٣-١٤].

٣- **الشيوعيون في العصر الحديث:**

فكرة الإلحاد فكرة قديمة حديثة وهى تعتمد على أن المادة في نظر القائلين بهذه الفكرة لا تفنى ولا تستحدث وهى تعنى أن المادة قديمة وهى مركبة من أجزاء لا تتجزأ وهذه الأجزاء

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٤١٩).

أو الذرات دائمة التحرك في الفضاء اللانهائي، ومن اجتماعها تتكون الأجسام وبافتراقها تفنى وهكذا استمر الأمر من الأزل وسيبقى إلى الأبد من دون غاية ولا هدف إنها المادية والآلية البحتة.

هذه الفكرة هي التي قال بها قديما ديموقريطس من الفلاسفة وسماها بمبدأ الديالكتيك أو نظرية «ترابط الوجود وهى فكرة الماديين المحدثين أمثال لينين الذي سماها «الدفاتر الفلسفية» كما وضع لها ستالين «المادية الجدلية والمادية التاريخية»، وقد حمل لواء هذه الفكرة كارل ماركس وسعى لفرضها على الناس بكل وسيلة مدعيا أن مهمة الفلسفة تغيير العالم مخالفا بذلك أستاذه هيجل الذي يعتقد أن مهمة الفلسفة تفسير العالم، واستغل ماركس تخلف أوربا وسخط الشعوب على النظام الكنسي الذي كان هو الحاكم في ذلك الوقت والذي وقف بالمرصاد لكثير من مسائل التقدم العلمي فخلط ماركس الأوراق وادعى أن الدين أفيون الشعوب وأنه سبب التخلف وطالب بفصل الدين عن الدولة ونسب ما حدث من الكنيسة لكل الأديان بما فيها دين الإسلام مع الفرق الكبير بينهما وأعلنها حربا على كل الأديان، ووقف معه وعاونه كل من وافق هذا الفكر هواه حتى أقاموا لهم دولة الاتحاد السوفيتي على أشلاء ودماء من خالفهم أو رفض فكرهم، ولكن دولة الباطل ساعة ودولة الحق إلى قيام الساعة فسرعان ما انكشف للناس بطلان فكرهم ولفظت الفطر السليمة إلحادهم فزالت بسرعة عجيبة دولتهم، وهوت أمام الحق أفكارهم، وظهر للعيان أن أكثر من خمسة وسبعين مليونا من المسلمين مازالوا على دين الإسلام وبربهم مؤمنين رغم ما ادعاه الملاحدة عبر سنين حكمهم من أن هؤلاء في عداد الملاحدة الشيوعيين.

ولكن أبى الله تعالى إلا إظهار الحق على الباطل بل وزوال الباطل إن عاجلا أو آجلا، قال تعالى: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء: ٨١]، وقال تعالى: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَـٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٨]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَـٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ [سبأ: ٤٨-٤٩]، كتب أبو زرعه الرازي إلى إسحاق بن راهويه: «لا يهولنك الباطل،

فإن للباطل جولة ثم يتلاشى»[١].

وإذا ظهر أهل الباطل على أهل الحق في فترة من الزمان إما لنصرة أصحاب السلطة لأهل الباطل، أو لتقصير أهل الحق في نصرة الحق، أو لذنوب اقترفها أهل الحق أوجبت تسلط أهل الباطل عليهم، فإنه يجب على أهل الحق من المسلمين أن يلزموا قلوبهم لزوم الحق وأن يصبروا على ذلك وأن يصدقوا في توجههم إلى الله عز وجل لعل الله تعالى أن يرفع عنهم البلاء وأن يظهر بهم الحق.

قيل للإمام أحمد بن حنبل أيام المحنة: «يا أبا عبد الله! ألا ترى الحق كيف ظهر عليه الباطل؟ فقال: كلا، إن ظهور الباطل على الحق أن تنتقل القلوب من الهدى إلى الضلالة، وقلوبنا بعد لازمة للحق»[٢].

ثانيًا: الحوار في إثبات وحدانية الله:

ونعني بها تفرده عز وجل ذاتا، وصفات، وأفعالا، فليس له في ذلك شريك ولا نظير، ولا مقارب أو مثيل. وهذا هو أصل الدين ومحوره وما تأسست عليه كليات الدين وجزئياته. وهذا هو أساس دعوة جميع الرسل عليهم السلام، ولب رسالاتهم، وعليها مدار جميع الكتب المنزلة من عند الله تعالى عليهم، وهذه الحقيقة هي حقيقة الحقائق الواقعية من حيث الوجود، ثم هي أصل الحقائق التشريعية من حيث الورود، لذا كان شعار جميع الأنبياء والرسل: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ [الأعراف: ٥٩]؛ جاءت على لسان كل من نبي الله نوح وهود وصالح وشعيب عليهم السلام، بل وعلى هذا النمط جاءت دعوة الرسل عليهم السلام جميعًا، حتى جمع الله تعالى وأوجز لخاتمهم هذه الحقيقة بقوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤ ﴾ [الإخلاص: ١-٤].

وهي على وجازتها شاملة لأصول الصفات الإلهية، والرد على جميع صنوف الملحدين فيها من أصحاب الحضارات وغيرهم، ثم هي مقررة لأسمي العقائد اللائقة بالله عز وجل،

---

(١) تقدمة الجرح والتعديل (١/ ٣٢٤).

(٢) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزى الباب السابع والستون (ص٣١٠).

ومصححة لضلالات أهل الكتاب، ناهيك عن المشركين[١].

وقد سلك القرآن في استدلاله على وحدانية الله مسلكين:

المسلك الأول: الاستدلال على ذلك بانتظام الكون وسلامته من الاختلال والتصادم. ومن أبرز الأدلة في ذلك ما يسميه علماء الكلام بدليل التمانع[٢] وهو بمعنى «قياس الخلف» في:

١ـ قوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

٢ـ قوله تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٤٢].

٣ـ قوله تعالى: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩١].

قال الإمام عبد الرحمن بن نجم في كتابه استخراج الجدال من القرآن بعد إيراده قول الله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء: ٢٢] قال: «وهذا الدليل معتمد أرباب الكلام من أهل الإسلام»[٣]. وقد نقل عن بعض علماء السلف أنه قال: نظرت في سبعين كتابا من كتب التوحيد فوجدت مدارها على قوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء: ٢٢]، واعلم أن تقرير الدليل في الآية الأولى أن يقال: الله واحد لأن التدبير لا ينتظم في دار واحدة بمدبرين فكيف ينتظم التدبير العام في جميع هذا الكون بمدبرين؟! فلو وجد ذلك لتنازعت الإرادتان بين سلب وإيجاب إذ يريد أحدهم حياة شخص والآخر موته أو إسعاده والآخر إشقاءه وهذا التنازع يؤدى إلى فساد السماوات والأرض لتخالف الإرادات، ولكنهما صالحان غير فاسدين، فبطل ما يؤدى إلى فسادهما وهو تعدد الآلهة، فثبتت الوحدانية لله

---

(١) المنهاج القرآني في التشريع للدكتور / عبد الستار فتح الله سعيد (ص٣٣١).

(٢) معنى دليل التمانع هو: إثبات المطلوب بإبطال نقيضه لأن النقيضين لا يجتمعان ولا يخلو المحل من أحدهما.

(٣) استخراج الجدال لابن منجم، الباب الخامس (ص٤٨).

تعالى. وتقرير الدليل الثاني مبنى على فهم المراد من قوله تعالى: ﴿ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٤٢]. وفيه قولان:

الأول: أن المراد به على فرض وجود آلهة مع الله فإنها ستطلب إليه القربى وتفتقر إليه، والجواب عن هذا الافتراض أن من يفتقر إلى غيره لا يصلح أن يكون إلهًا.

القول الثاني: أن المراد به على فرض وجود آلهة مع الله فإنها ستتجه لمنازعته ومغالبته على السلطة فيقع الصدام الذي ينتج عنه فساد العالم. والجواب عن هذا الافتراض: أنه لم يفسد العالم ولم يختل نظام الكون فثبت أنه ليس مع الله آلهة أخري.

وتقرير الدليل في الآية الثالثة قريب مما تقدم في الآية الثانية، فإنه لو فرض وجود إله مع الله لانفرد كل إله بسلطان مستقل واتجه للمغالبة والاستعلاء بالقوة على غيره فينشأ عن ذلك فساد الكون أو تغلب أحدهما على الآخر والمغلوب لا يكون إلهًا، ولكن نظام الكون لا فساد فيه ولا اختلال فدل على أن مدبره إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم.

وقد ذكر بعض العلماء أنها قد تثار الشبهة على هذه الأدلة من وجهين:

أحدهما: أنه يجوز أن يكون اثنان تتفق إرادتهما فلا يقع خلاف فلا فساد.

وثانيهما: قالوا: لما رأينا وجود الشيء وضده مثل الموت والحياة والنور والظلمة والخير والشر وما يقتضى الحكمة وينافيها من النقض بعد البناء والعجز بعد القوة جاز أن ينسب إلى مدبرين اثنين.

والجواب على الوجه الأول:

أن يقال: يستحيل وجود اثنين متحدين إرادة متكافئين علما ومعرفة، والقدرة والإرادة والحكمة والتدبير على وجه لا تتقدم صفة أحدهما على صفة الآخر في الأعيان والأذهان، فإذا وجدا -وذلك مستحيل ومتعذر- فهما واحد سموه اثنين. ويقال في حصر هذا الافتراض: لو فرض وجود إلهين وأراد أحدهما تحريك جسم وأراد الآخر تسكينه فلا يخلو الأمر إما أن يحصل مرادهما فيكون الجسم ساكنًا متحركًا في آن واحد، وهذا جمع بين النقيضين وهو باطل، وإما ألا يحصل مراد واحد منهما فيخلو الجسم عن الحركة والسكون، وهذا ممتنع، بالإضافة

إلى عجز كل منهما في تنفيذ مراده، ومن كان كذلك فليس بإله قادر، وإما أن يحصل مراد أحدهما دون الآخر، فالذي حصل مراده هو الإله القادر والآخر عاجز لا يصلح للإلوهية، وإما أن تتنازع الإرادتان فيستعمل كل إله سلطته وقدرته ضد الآخر فينشأ عن هذا فساد الكون وخراب العالم، والواقع أن الكون بما فيه يجرى على أحكم نظام وأدقه فتبين من هذا أن خالق هذا الكون ومن فيه إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم.

والجواب على الوجه الثاني: أن صدور الشيء وضده أدل على قدرة الصانع، وقد نبه الله سبحانه وتعالى على ذلك في عدة مواضع من الكتاب العزيز، من ذلك قوله: ﴿ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد: ٤]، وقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ [يس: ٨٠]، وغير ذلك من الآيات.

المسلك الثاني: في التركيز على إبطال معبودات المشركين وبيان تفاهتها وأنها لا تخلق ذبابة ولا تستطيع أن تدفع عن نفسها ضررًا ولا تجلب لها نفعًا فكيف تملك لغيرها ضرًا أو نفعًا، وبيان تفاهة المشركين عندما يعبدون هذه الأوثان وأنها أضعف وأحقر من أن يقام لها وزن أو يثار حولها حوار. قال تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤١]. وقد بعث الله الرسل وأنزل الكتب لتحقيق هذا المبدأ العظيم وهو إثبات وحدانية الله تعالى وترك ما يعبد من دونه، وهذا الأصل العظيم هو الأصل الأول الذي دعت لتحقيقه جميع الأديان السماوية، إذ بعث الله في كل أمة رسولًا يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له. قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦].

٢- الحوار في إثبات الرسالات والنبوات:

لقد خلق الله عباده حنفاء، وفطرهم على الإسلام والتوحيد، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرَمت عليهم ما أحل الله لهم، وأحلت لهم ما حرم الله عليهم، وصرفتهم عن عبادة ربهم، ولبست عليهم دينهم، وحملتهم على أن يشركوا بالله ما لم ينز ل به

سلطانًا، وزينت لهم الباطل، فامتن الله عليهم فأرسل إليهم رسله مبشرين ومنذرين وأنزل عليهم كتبه ليأخذوا بنواصي العباد إليه يذكرونهم بإلهيته تعالى ووحدانيته، ويحملونهم على عبادته وحده لا شريك له، ويبينون لهم حدود الله تعالى ومحارمه، وما يرضيه وما يسخطه، وما أعده من نعيم لأهل طاعته، وما أعده من عذاب عظيم لمن خالف أمره واتبع غير سبيله.

ومن منته تعالى على عباده أنه كلما اشتد الخطب وأعرض الخلق عن الحق فانتشر الشرك وتفشى الظلم اصطفى الله لعباده عبدا منهم فخصه برسالته وصنعه على عينه ودعاه لحمل رسالته وبيانه لعباده والصبر على دعوتهم والأخذ بنواصيهم إليه حتى يثوبوا إلى رشدهم وينتهوا عن غيهم فيظفروا بسعادة الدنيا ونعيم الآخرة.

فالنبوة اصطفاء واختيار ولا تكون إلا لمن اختاره الله تعالى لها ممن هم أهل لحملها، فلا تكون بالوراثة ولا بالغلبة والقهر. قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [الحج: ٧٥]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وتوالى على البشرية الرسل رسول يتلوه رسول كما قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [المؤمنون: ٤٤].

ولقد اتضحت معالم هذه الفترات السابقة على النبوات من خلال الحديث القدسي الذي أخرجه الإمام مسلم في صحيحه من حديث عياض بن حمار المجاشعي ﷺ أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته: «**ألا إن ربى أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا، كل مال نحلته عبدًا حلالٌ، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم**[1] **عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا، وإن**

(١) اجتالتهم: أي أزالتهم من الجولان وهو الزوال عن المستقر، وقال القرطبي استخفتم فجالوامعهم في الضلال. القرطبي (٥/ ٣٨٩).

الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب»[١].

واتضحت أيضًا معالمها مما ذكره جعفر بن أبى طالب ﷺ للنجاشي، فلقد أوجز جعفر بن أبى طالب ﷺ وأبلغ في بيانه للنجاشي، حين هاجر إليه، وأرسل المشركون في طلبه واستدعاه النجاشي، فتكلم جعفر، وبين ما جاء به النبي خير بيان فقال:

«أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية: نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، يأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا، وأمرنا بالصلاة والزكاة، والصيام، قال: فعدد عليه أمور الإسلام، فصدقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئا، وحرمنا ما حرم علينا وأحللنا ما أحل لنا، فعدا قومنا علينا فعذبونا، وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا، وظلمونا، وشقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلدك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك.

فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟ فقال له جعفر: نعم. فقال له النجاشي: فاقرأه علي، فقرأ عليه صدرا من ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ [مريم: ١] فبكى والله النجاشي حتى أخضل لحيته وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم، حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال النجاشي: إن هذا والله والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة...»[٢] الحديث.

---

(١) أخرجه مسلم رقم (٢٨٦٥) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار والراوي هو عياض بن حمار التميمي المجاشعي صحابي سكن البصرة، والنسائي في السنن، والطبراني في الكبير.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسند جعفر بن أبي طالب باب الهجرة إلى الحبشة، رقم (١٧٦٦، ٢٣١٦١)، ورواه البيهقي في السنن كتاب السير رقم (١٨٨٩٢).

لقد أسس الله الدين على التصديق بنبوة النبيين فأوجب الإيمان بهم إجمالا وبمن ورد ذكرهم في القرآن تفصيلا، وجعل التكذيب وترك الإيمان بواحد منهم كالتكذيب بجميعهم، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥]، وقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٣]، وقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٤١]، وقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٠].

لم يرسل لكل قوم ممن ذكروا إلا نبيهم، فلم يرسل لقوم نوح إلا نوح ولم يرسل لعاد إلا هود وهكذا، ومع ذلك جعل تعالى تكذيب كل قوم لرسولهم تكذيب بكل الرسل لكون دعوة الرسل واحدة، فكان التكذيب بواحد تكذيب بالجميع، وفى هذا يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ١٥٠-١٥١].

والنبوة سابقة على الرسالة، فكل رسول نبي ولا عكس، وكلتاهما وهبية لا كسبية لا كما ادعى أدعياء الفكر الحديث من المستشرقين حين زعموا أن رسالة النبي الخاتم محمد ﷺ من قبيل الوحي النفسي، ولقد أحسن الدكتور محمد عبد الله دراز في الرد عليهم حيث قال[1]: «ومن تتبع أنواع المجادلات التي حكاها القرآن عن الطاعنين فيه رأى أن نسبتهم القرآن إلى تعليم البشر كانت هي أقل الكلمات دورانًا على ألسنتهم، وأن أكثرها ورودًا في جدلهم هي نسبته إلى نفس صاحبه على إضرابهم في تحديد تلك الحالة النفسية التي صدر عنها القرآن: أشعر هي أم جنون أم أضغاث أحلام». ثم قال: «وهذا الرأي هو الذي يروجه الملحدون اليوم باسم «الوحي النفسي» زاعمين بأنهم بهذه التسمية قد جاءونا برأي علمي جديد وما هو بجديد وإنما هو الرأي الجاهلي القديم لا يختلف عنه في جملته ولا في تفصيله، فقد صوروا النبي ﷺ رجلًا ذا خيال واسع وإحساس عميق فهو إذن شاعر، ثم زادوا فجعلوا وجدانه

(١) النبأ العظيم للشيخ دراز (ص٨٤).

يطغي كثيرًا على حواسه يخيل إليه أنه يرى ويسمع شخصًا يكلمه وما ذاك الذي يراه ويسمعه إلا صورة أخيلته ووجدانه فهو إذن جنون أو أضغاث الأحلام، على أنهم لم يطيقوا الثبات طويلًا على هذه التعديلات فقد اضطروا أن يهجروا كلمة «الوحي النفسي» حينما بدا لهم في القرآن جانب الأخبار الماضية والمستقبلة فقالوا لعله تلقنها من أفواه العلماء في أسفاره للتجارة فهو إذن قد علمّه بشر، فأي جديد ترى في هذا كله؟ أليس كله حديثًا معادًا يضاهئون به قول جهال قريش؟ وهكذا كان الإلحاد في ثوبه الجديد صورة منسوخة بل ممسوخة منه في أقدم أثوابه، وكان غذاء هذه الأفكار المحتضرة في العصر الحديث مستمدًا من فتات الموائد التي تركتها تلك القلوب المتحجرة في عصور الجاهلية الأولى ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ١١٨].

«وإن تعجب فعجب قولهم مع هذا كله أنه كان صادقًا أمينًا وأنه كان معذورًا في نسبة رؤاه إلى الوحي الإلهي لأن أحلامه القوية صورتها له وحيًا إلهيا فما شهد إلا بما علم، وهكذا حكي الله لنا عن أسلافهم حيث يقول: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]، فإن كان هذا عذره في تصوير رؤاه وسماعه فما عذره في دعواه أنه لم يكن يعلم تلك الأشياء لا هو ولا قومه من قبل هذا بينما هو قد سمعها بزعمهم من قبل؟ فليقولوا إنه افتراه ليتم لهم بذلك محاكاة كل الأقاويل ولكنهم لا يريدون أن يقولوا هذه الكلمة لأنهم يدعون الإنصاف والتعقل ألا فقد قالوها من حيث لا يشعرون»[1].

«وخلاصة رأى هؤلاء الماديين: أن الوحي إلهام كان يفيض من نفس النبي الموحى إليه لا من الخارج، وقد ذكر العلامة السيد محمد رشيد رضا في كتابه «الوحي المحمدي» شبهات المنكرين لعالم الغيب على الوحي الإلهي وتصويرهم لنبوة محمد ﷺ بما يسمونه بالوحي النفسي وذكر أن «أميل درمنجام» قد فصل الشبهة التي أجملها «مونتيه»، كما ذكر أن هذه الشبهة لها عشر مقدمات: منها دعوى الأخذ عن بحيرا الراهب والأخذ من ورقة بن نوفل، ودعوى

(١) النبأ العظيم (ص٨٤- ٨٥).

انتشار اليهودية والنصرانية في بلاد العرب... إلخ، وقد ناقش تلك الشبهات ورد عليها بمنطق الحجة والبرهان»[١]»[٢].

والخلاصة أن الرسالة هبة واصطفاء لمن اختصه الله تعالى من خلقه، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

والرسل هم أعلم الخلق وأعدلهم طريقة، وأكملهم خُلُقًا وأصدقهم لهجة، شرفهم الله تعالى بالنبوة، وأعطاهم الحكمة، ورزقهم قوة العقل، ودقة الفهم، وسداد الرأي، واصطفاهم ليكونوا وسطاء بينه وبين خلقه، يبلغونهم أوامره ونواهيه، ويحذرونهم غضبه وعقابه، ويرشدونهم إلى ما فيه سعادة الدنيا والآخرة، ومع هذا ساق الله لهم من المعجزات ما يؤيد صدق نبوتهم وأنهم مبعوثون من عند خالقهم، وحاور كل من ارتاب أو شكك في نبوتهم، ورد شبهاتهم بالحجج الباهرة والأدلة الدامغة والتي على مثلها آمن القاصي والداني، فانبهرت بأدلة الوحي ومعجزاته عقول صفوة الخلق وانشرحت له وبه صدورهم فحملوا الأمانة عن أنبياء الله لأقوامهم، وكانوا حجة على من خالفهم كما قال تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأحقاف: ١٠]، وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الشعراء: ١٩٧]، فجعل تعالى إيمان أحدهم أو بعضهم حجة على المعاندين منهم وغيرهم. بل إن المتتبع للتاريخ البشرى وخاصة من كانت لهم حضارة وتاريخ النبوات يجد أن العقول والطاقات البشرية قد اختلفت توجهاتها من جيل إلى جيل، وفى كثير من الأجيال تفوقت العقول في بعض المجالات دون البعض فبرعت فيه وبزت وأتت بالطريف الذي لا تدرك آثاره ولا يلحق غباره، لذا كان لكل حضارة توجها تفوقت فيه وبرعت، فانبهرت به النفوس وفتنت به القلوب وارتدت على أدبارها بعيدا عن الحق وفرارا منه، وإذا برحمة الله تتجلى ببعث نبي يأخذ بنواصيهم إلى الحق، وينقذهم من الفتن، ويقوِّم مسيرتهم ويردهم عن

---

(١) الوحى المحمدى من (ص٨٧- ١٤١).

(٢) مناهج الجدل للدكتور زاهر بن عواض الألمعى (ص٢٩٦-٢٩٧).

غيهم ويعيدهم إلى رشدهم ويقودهم لما فيه صلاح دنياهم وآخرتهم، ويؤيد الله تعالى نبيه بمعجزة في المجال الذي تفوق فيه قومه وعرفوا دقائقه ووصلت العقول فيه غايتها ونهايتها، فجاءت المعجزة فوق طاقاتهم لتثبت لهم صدق نبي الله الذي أرسل إليهم، وتقطع عليهم الشبهات والظنون في إمكانية الإتيان بمثلها مع تحصيل العلم والدراسة.

وعلى سبيل المثال لا الحصر قوم ثمود -وهم أصحاب حضارة- حين وجهوا طاقاتهم لدراسة الجبال وعرفوا أغوارها وتعرفوا على خباياها وتمكنوا من تحويلها إلى ديار نحتوها من الداخل ومن الخارج وحولوها إلى وادٍ، وكأن الجبال قد صارت في أيديهم قطعة من صلصال يشكلونها كيف شاءوا، وكما قال عنهم الحق تعالى: ﴿ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴾ [الفجر: ٩]، قال صاحب الظلال: «وكانت ثمود تسكن بالحجر في شمال الجزيرة العربية بين المدينة والشام وقد قطعت الصخر وشيدته قصورًا، كما نحتت في الجبال ملاجئ ومغارات»[(١)]. قال الإمام القرطبي: «وكانوا لقوتهم يُخرجون الصخور، وينقبون الجبال، ويجعلونها بيوتًا لأنفسهم»[(٢)]. فقابلوا نعمة ربهم عليهم بالجحود والنكران، فبعث الله لهم نبيه صالح عليه السلام وجعل معجزته لهم ناقة ضخمة تخرج من هذا الصخر الذي جعلوه مادة تقدمهم ومفخرة حضارتهم، ليعجزهم ويثبت لهم كمال قدرته وصدق رسوله الذي أرسل إليهم من ربهم، ولكنهم جحدوا بهذه الآية العظيمة وعقروا الناقة وتآمروا على قتل نبيهم صالح فانتقم الله منهم، كما قال تعالى: ﴿ وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ [النمل: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَىٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴾ [الشمس: ١١-١٥]، وقال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ

(١) كتاب فى ظلال القرآن (٦/ ٣٩٠٤).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٢٠/ ٤٨).

﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [الأعراف: ٧٣].

ومثال ثان: قوم فرعون -وهم أصحاب حضارة- حين بلغوا في السحر الغاية حتى بهروا الناس بسحرهم، وكان السحر عندهم بديل وسائل الإعلام الآن، فكان للفرعون من السحرة أمهرهم ليقوموا بدور المسلي في السهر والسمر، وصار اتخاذ السحرة للترفية والتسلية موضة ذلك العصر، فصار كل من يملك الإنفاق عليهم يتخذ لنفسه ساحرا أو يستأجره حتى أصبحت رواتب السحرة من أعلى الرواتب، فتسابق الناس على تعلم السحر وإتقانه حتى ساد في الأمة، كما حكي الله عن إتقانهم لذلك فقال تعالى: ﴿قَالَ أَلْقُوا ۖ فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦].

وبين تعالى أثر سحرهم على نبيه موسى المرسل إليهم فقال تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٧-٦٩].

بل صار منهم أئمة في السحر وعلماء متخصصون فيه كما قال عنهم تعالى: ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٣٧].

«سَحَّارٍ» صيغة مبالغة. وزد على ذلك كثرة هؤلاء المتخصصين في السحر كما ورد في بعض الروايات؛ أخرج الطبري وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن القاسم بن أبي بزة قال: «سحرة فرعون سبعون ألف ساحر، فألقوا سبعين ألف حبل وسبعين ألف عصا»[(١)]. وذكر القرطبي أن ابن المنكدر قال: «ثمانين ألف سحار»[(٢)]، وقيل غير ذلك. وإذا بالحق سبحانه وتعالى يسوق لهم مع نبيه موسى عليه السلام معجزته التي أيده بها من جنس ما تفوق فيه قومه، فيجعل من العصا حية تسعى ويراها الجميع كذلك بما فيهم السحرة أنفسهم بل وتلقف ما صنعوا، فلم تنتفخ لها بطن ولم يزد لها حجم، فلم يملك السحرة أمام هذه الآية المبهرة إلا أن خروا لله سجدا قائلين: آمنا برب هارون وموسى، فهم هم الذين رأوا منذ قليل عصيهم

(١) تفسير الطبري (٦/ ٢١)، الدر المنثور (٣/ ٥١٣).

(٢) الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي (٧/ ٢٢٩)، (١١/ ١٩٤).

عصى وحبالهم حبالا وإن رآهما الناس حيات فماهيات الأشياء عندهم لم تتغير.

ومثل ذلك يقال عن نبي الله عيسى بن مريم عليه السلام حين بُعث إلى قومه، وهم أصحاب حضارة قيل في الطب تفوقت، وقيل في غير ذلك، فأيده الله تعالى بآية إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وخلق طير من الطين فينفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله وينبئهم بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم، فلما رأوا الآيات آمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة فأيد الله الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين منتصرين.

ويؤيد ما قلناه ما ذكره ابن كثير في تفسيره فقال رحمه الله: «قال كثير من العلماء: بعث الله كل نبي من الأنبياء بما يناسب أهل زمانه؛ فكان الغالب على زمان موسى عليه السلام السحر وتعظيم السحرة فبعثه الله بمعجزة بهرت الأبصار وحيرت كل سحار، فلما استيقنوا أنها من عند العظيم الجبار انقادوا للإسلام وصاروا من عباد الله الأبرار، وأما عيسى عليه السلام فبعث في زمن الأطباء وأصحاب علم الطبيعة فجاءهم من الآيات بما لا سبيل لأحد إليه إلا أن يكون مؤيدا من الذي شرع الشريعة، فمن أين للطبيب قدرة على إحياء الجماد أو على مداواة الأكمه والأبرص وبعث من هو في قبره رهين إلى يوم التناد؟! وكذلك محمد ﷺ بعث في زمان الفصحاء والبلغاء ونحارير الشعراء فأتاهم بكتاب من الله عز وجل لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله أو بعشر سور من مثله أو بسورة من مثله لم يستطيعوا أبدا ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا؛ وما ذاك إلا لأن كلام الرب عز وجل لا يشبه كلام الخلق أبدا»[1].

والخلاصة: أن الله تعالى أجرى على أيدي أنبيائه الآيات الباهرات، والتي على مثلها آمن الناس الحاضر منهم والغائب، وانقضت معجزات الأنبياء بانقضاء أعمارهم، إلا معجزة الدهر، وشعار الفخر: القرآن الكريم، مضى عليه أربعة عشر قرنا من الزمان، وإعجازه جديد، وهرم شباب الزمان ورونق القرآن إلى مزيد، تقضَت السنون والأعمار وتصرمت الليالي والأيام وتحديه للبشرية لا يزال قائمًا، ولن يأتي أحد بسورة من مثله ولو كان الجن

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٤٨٥).

والإنس بعضهم لبعض ظهيرا.

وأما أصحاب الحضارات فما منهم من حضارة إلا ساق الله لها نبيا يرشدها، أو نذيرا يعلمها، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ فَسِيرُواْ فِي ٱلأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر: ٢٤]، وكان ردهم ما قاله تعالى عنهم: ﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الزخرف: ٦-٧]، ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الحجر: ١١]، جاءهم الرسول أو النبي أو النذير بلسانهم الذي يعرفونه، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [إبراهيم: ٤]، جاءهم الرسول ليعلمهم حقيقة دورهم في الحياة ومهمتهم العظمى فيها، والتي قال عنها تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَاْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، فلولا إذ جاءهم الرسول عرفوا مدى ظلمهم لأنفسهم وتقصيرهم في حق ربهم ونبيهم فأنابوا، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ٦٤]، فلو صدقوا الله لتحولوا إلي جند ينصرونه، ولكانوا ممن قال الله فيهم: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، لكن الشياطين اجتالتهم فأفسدت عليهم أعظم نعم الله عليهم؛ الوحي المنزل من عند خالقهم، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِيٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [الحج: ٥٢]، فاتهموا أنبياءهم ظلما بالجنون أو السحر، قال عنهم تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ [الذاريات: ٥٢]، فعوجلوا بعذاب ليذكروا، قال عنه تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٤]، فاستحقوا

قوله تعالى عنهم: ﴿ يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [يس: ٣٠]. كل هذا في الدنيا لكنهم يوم القيامة بالحق وبالرسل يقرون ولأنفسهم يتهمون، قال تعالى: ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، وقال تعالى: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [الزمر: ٧١]، وقال تعالى: ﴿ كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ﴿٨﴾ قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ ﴿٩﴾ وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الملك: ٨-١٠].

ولقد تكفل الحق تبارك وتعالى بإتمام رسالة كل رسول أرسله مهما حاول قومه أن يشوهوا صورته أو يثيروا الشبهات حوله، ومن تلك الشبهات ما أثاره أصحاب الحضارات من:

شبهة كون الرسول بشرا:

إن مهمة الأنبياء عليهم السلام أن يبلغوا رسالة الله إلى عباده، وأن يكونوا قدوة لهم في سلوكهم وأخلاقهم وتصرفاتهم.

ولو كان الرسل من الملائكة كما طلب بعض البشر لما استطاع البشر أن يأخذوا عنهم أو يجتمعوا بهم ولكان للناس حجة في عدم اتباع الرسل لاختلاف جنسهم وطبيعتهم وأنهم لا يأكلون ولا يشربون، وأنهم لا يعصون، لقوله تعالى عنهم: ﴿ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [التحريم: ٦]؛ وأنهم دائما في عبادة لا ينقطعون عنها أبدًا لقوله تعالى: ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٠].

والملك الذي طلب أصحاب الحضارات وغيرهم إرساله لهم قد يأتيهم إما في صورته الملائكية ولو حدث هذا لما احتملها البشر بل هي صورة حاملة لهم على الخوف والفزع لعدم إلفها ولعدم القدرة على تحملها إلا لمن اصطفاه الله تعالى لذلك وأهله له وهيأه، والنبي ﷺ لما رأى جبريل أول مرة وقد ملأ ما بين السماء والأرض فزع وارتعد وعاد بيته وهو يقول:

«دثروني دثروني» لشدة ما رأي.

وإما أن يأتيهم الملك في صورة بشر وعندها سيشكون في أمره ويلتبس الحال عليهم، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ [الأنعام: ٨-٩].

قال الإمام القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا ﴾ «أي: إنهم لا يستطيعون أن يروا الملك في صورته إلا بعد التجسم بالأجسام الكثيفة، لأن كل جنس يألف بجنسه، وينفر من غير جنسه، فلو جعل الله تعالى الرسول إلى البشر ﴿ مَلَكًا ﴾ لنفروا من مقاربته، ولما أنسوا به، ولداخلهم من الرعب من كلامه، والاتقاء له ما يكفهم عن كلامه، ويمنعهم عن سؤاله، فلا تعم المصلحة، ولو نقله عن صورة الملائكة إلى مثل صورتهم ليأنسوا به، وليسكنوا إليه، لقالوا: لست ملكًا وإنما أنت بشر فلا نؤمن بك، وعادوا إلى مثل حالهم. حيث كانوا يقولون عن محمد ﷺ وسائر الأنبياء عليهم السلام إنهم بشر، وليس بينهم وبين الناس فرق، فيلبسون على الناس بهذا ويشككونهم، فأعلمهم الله عز وجل أنه لو أنزل ملكًا في صورة رجل لوجدوا سبيلًا إلى اللبس «الشك» كما يفعلون»[1].

وقد ذكر تبارك وتعالى في آية كريمة أخرى الحكمة من كون النبي من البشر، لا من الملائكة، وذلك أن المرسل يجب أن يكون من جنس المرسل إليهم، فلو كان الذين يسكنون الأرض من الملائكة لبعث الله تعالى إليهم نبيا ﴿ مَلَكًا ﴾ كما قال تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٤-٩٥]، وقال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴾ [الحجر: ٦-٨].

---

(١) تفسير القرطبي (٦/ ٣٩٣) بتصرف.

وقال تعالى: ﴿ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ [الفرقان: ٢١-٢٢]، وقال تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [هود: ١٢].

بل زاد الكفار على تلك الشبهة شبهة أخرى حين أيقنوا بلزوم بشرية الرسول، فطلبوا أن يكون الرسول واحدا ممن عدوهم من عظمائهم فرد الله عليهم شبهتهم، قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [الزخرف: ٣١-٣٢].

بل زادوا على ذلك في حق النبي الخاتم محمد ﷺ شبهة جديدة وهي:

شبهة كون معلمه بشرا:

ادعى كفار مكة أن مُعلّم النبي محمد ﷺ القرآن بشر، ففي الفترة المكية كلما هم النبي ﷺ بدعوة أحد من غير العرب خاصة من له منهم قراءة في كتب السابقين ككتب أهل الكتاب زعمت قريش أنه يعلمه الوحي ولذا تخبطوا؛ فتارة جعلوا مُعلمه القرآن غلام الفاكه بن المغيرة واسمه جبر، وتارة نسبوا ذلك لعبد بني الحضرمي واسمه يعيش، وتارة لغلام بني عامر بن لؤي، وقيل غلامان وهما يسار وجبر، وتارة لنصراني واسمه بلعام، وتارة لنصراني واسمه أبو ميسرة، وتارة لعداس، وتارة لسلمان الفارسي. وسبحان من أعمى بصائرهم، فكل هؤلاء اتفق لهم كونهم عجما لا يحسنون العربية وهذا الوحي جاءهم بلسان عربي مبين في القوة والوضوح والتحدي لهم وهم أهل العربية الذين سبروا[1] أغوارها وأحسنوا نظمها

(١) سبروا أغوارها: أي قاسوا أعماقها، السبر التجربة، وتقدير الشيء، وسبر الجرح بالمسبار قاس قعره بالحديدة أو بغيرها، وفي الحديث (إسباغ الوضوء في السبرات)، والسبرة الغداة الباردة.

شعرا ونثرا، فجاءهم بنظم معجز على غير ما ألفوا، وتحداهم أن يأتوا بمثله فلما عجزوا تحداهم بعشر سور من مثله، فلما أعياهم تحداهم بسورة من مثله فما أعروا الأمر جوابا، وما استطاعوا الوقوف أمام عظمة هذا الوحي إلا تائهين يتلمسون الشبهات فتارة ينسبوه للشعر وتارة للسحر وتارة لكلام البشر، فلما انكشف للقاصي والداني زيف ذلك نسبوا لحامل الرسالة ﷺ شبها أخر، ككونه كاهنا أو مجنونا أو معلمه بشر ومع كل شبه يثيروها حول القرآن أو حامله ﷺ ينزل القرآن بمحاورتهم والرد على شبههم ودحضها ومثال ذلك شبهة كون معلمه بشرا، فقال الله تعالى ردا على هذه الشبهة: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان: ٥-٦].

قال الإمام الشوكاني في كتابه فتح القدير في تفسير الآية:

«ثم ذكر سبحانه شبهة أخرى من شبههم فقال: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ﴾ اللام هي الموطئة: أي ولقد نعلم أن هؤلاء الكفار يقولون إنما يعلم محمدا القرآن بشر من بني آدم غير ملك. وقد اختلف أهل العلم في تعيين هذا البشر الذي زعموا عليه ما زعموا فقيل هو غلام الفاكه بن المغيرة واسمه جبر وكان نصرانيا فأسلم، وكان كفار قريش إذا سمعوا من النبي ﷺ أخبار القرون الأولى مع كونه أميا قالوا: إنما يعلمه جبر وقيل اسمه يعيش عبد لبني الحضرمي وكان يقرأ الكتب الأعجمية، وقيل غلام لبني عامر بن لؤي، وقيل هما غلامان: اسم أحدهما يسار واسم الآخر جبر، وكانا صيقليين يعملان السيوف وكانا يقرآن كتابا لهم، وقيل كانا يقرآن التوراة والإنجيل، وقيل عنوا سلمان الفارسي، وقيل عنوا نصرانيا بمكة اسمه بلعام وكان يقرأ التوراة، وقيل عنوا رجلا نصرانيا كان اسمه أبا ميسرة يتكلم بالرومية، وفي رواية اسمه عداس. قال النحاس: وهذه الأقوال غير متناقضة لأنه يجوز أنهم زعموا أنهم جميعا يعلمونه، ولكن لا يمكن الجمع باعتبار قول من قال إنه سلمان لأن هذه الآية مكية وهو إنما أتى إلى النبي ﷺ بالمدينة، ثم أجاب سبحانه عن قولهم هذا فقال: ﴿ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ ﴾ الإلحاد: الميل، يقال لحد وألحد: أي مال

عن القصد، وقرأ حمزة والكسائي «يلحدون» بفتح الياء والحاء، وقرأ من عداهما بضم الياء وكسر الحاء: أي لسان الذي يميلون إليه ويزعمون أنه يعلمك أعجمي، يقال: رجل أعجم وامرأة عجماء: أي لا يفصحان، والعجمة الإخفاء وهي ضد البيان، والعرب تسمي كل من لا يعرف لغتهم ولا يتكلم بها أعجميا، قال الفراء: الأعجم الذي في لسانه عجمة وإن كان من العرب، والأعجمي: هو العجمي الذي أصله من العجم، وقال أبو علي الفارسي: العجمي المنسوب إلى العجم الذي لا يفصح سواء كان من العرب أو من العجم، والأعجمي المنسوب إلى العجم وإن كان فصيحا، وهذا لسان عربي وكذلك الأعجم مبين، الإشارة إلى القرآن، وسماه لسانا لأن العرب تقول للقصيدة والبيت لسانا، ومنه قول الشاعر:

لسان الشر تهديها إلينا وخنت وما حسبتك أن تخونا[1]

أو أراد باللسان البلاغة فكأنه قال: وهذا القرآن ذو بلاغة عربية وبيان واضح فكيف تزعمون أن بشرا يعلمه من العجم وقد عجزتم أنتم عن معارضة سورة منه وأنتم أهل اللسان العربي ورجال الفصاحة وقادة البلاغة، وهاتان الجملتان مستأنفتان سيقتا لإبطال طعنهم ودفع كذبهم»[2].

قال الإمام الطبري في تفسير الآية: «يقول تعالى ذكره: ولقد نعلم أن هؤلاء المشركين يقولون جهلا منهم: إنما يعلم محمدا هذا الذي يتلوه بشر من بني آدم وما هو من عند الله. يقول الله تعالى ذكره مكذبهم في قيلهم ذلك: ألا تعلمون كذب ما تقولون، إن لسان الذي تلحدون إليه يقول: تميلون إليه بأنه يعلم محمدا أعجمي؟ وذلك أنهم فيما ذكر كانوا يزعمون أن الذي يعلم محمدا هذا القرآن عبد رومي فلذلك قال تعالى: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٞ﴾ يقول: وهذا القرآن لسان عربي مبين.

واختلف القراء في قراءة قوله: «يلحدون» فقرأته عامة قراء المدينة والبصرة: ﴿لِّسَانُ

---

(١) هذا البيت لأعشى باهلة نقله الإمام القرطبي في تفسيره (١٠/ ١٧٩)، والشوكاني في فتح القدير (٤/ ٢٦٥).

(٢) تفسير فتح القدير (٣/ ٢٧٩).

﴿ٱلَّذِى يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ﴾ بضم الياء من ألحد إلحادا بمعنى يعترضون ويعدلون إليه ويعرجون إليه من قول الشاعر:

قدني من نصر الخبيبين قدي ليس أميري بالشحيح الملحد[١]

وقرأ ذلك عامة قراء أهل الكوفة «لسان الذي يلحدون إليه» بفتح الياء يعني: يميلون إليه من لحد فلان إلى هذا الأمر يلحد لحدا ولحودا. وهما عندي لغتان بمعنى واحد فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب فيهما الصواب. وقيل ﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٞ﴾ يعني: القرآن، كما تقول العرب لقصيدة من الشعر يعرضها الشاعر: هذا لسان فلان، تريد قصيدته، كما قال الشاعر:

لسان السوء تهديها إلينا وحنت وما حسبتك أن تحينا[٢]

يعني باللسان القصيدة والكلمة»[٣].

وقال ابن كثير في تفسير الآية: «قال الله تعالى رادا عليهم في افترائهم ذلك: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٞ﴾ أي: القرآن، أي: فكيف يتعلم من جاء بهذا القرآن في فصاحته وبلاغته ومعانيه التامة الشاملة التي هي أكمل من معاني كل كتاب نزل على نبي أرسل كيف يتعلم من رجل أعجمي؟ لا يقول هذا من له أدنى مسكة من العقل»[٤].

وعلق الإمام القرطبي بعد ذكره لأقوال الكفار حول هذه الشبهة فقال:

«قلت: والكل محتمل، فإن النبي ﷺ ربما جلس إليهم في أوقات مختلفة ليعلمهم مما علمه

---

(١) جعل عبد الله بن الزبير أبا خبيب ومن كان على رأيه عددًا ولم يضفهم بالياء فيقول الخبيبيون قال أبو عبيدة يعني بالخبيبين أبا خبيب ومصعبًا أخاه، كتاب مجاز القرآن (١/ ١٠٧).

(٢) كتاب الكشف والبيان للثعلبي (٧/ ٤٣٠)، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب (١/ ٦٨)، حجة القراءات باب ثم (١/ ٣٩٤).

(٣) تفسير جامع البيان للإمام الطبري (٧/ ٦٤٧).

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢/ ٧٧٤).

الله وكان ذلك بمكة. وقال النحاس: وهذه الأقوال ليست بمتناقضة لأنه يجوز أن يكونوا أومؤوا إلى هؤلاء جميعا وزعموا أنهم يعلمونه.

ويعني باللسان القصيدة ﴿ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ أي أفصح ما يكون من العربية»[1].

٣- الحوار في الكتب المنزلة من عند الله:

لقد أنزل الله تعالى كتبه على أنبيائه وجمع لهم فيها كل ما فيه صلاح الإنسان في دنياه وآخرته، من أمر الشرائع والتعاليم والأحكام، وما يلحق بها من قصص وأخبار، وعظات وأمثال، ودلائل وبراهين وغير ذلك.

وجه الله هذه الكتب لأصحاب الحضارات وغيرهم على مر العصور، وحاورهم فيها إجمالا وتفصيلا، فأوجب عليهم الإيمان بها، لأن الإيمان بالكتب السماوية إيمان بالمنهج الإلهي كله الذي أوحاه الله تعالى إلي رسله، وللإيمان بالكتب السماوية جانبان: الأول: وجوب الإيمان بأعيان ما سمي لنا من هذه الكتب كالتوراة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم وموسي، ثانيا: وجوب الإيمان بكل ما جاء فيها من القواعد والأحكام، والدلائل والأخبار... إلخ.

لقد حاور الوحي الإلهي المنزل على كل نبي أهل عصر ذلك النبي، وختم الوحي بالقرآن الكريم الذي حاور البشرية كلها سابقها ولاحقها في أمر هذه الكتب المنزلة من عند الله فأخذ الحوار صورة من اثنتين وهما:

أولا: إجمالا

من حيث كونها منزلة من عند الله مع سوق الأدلة القاطعة والبراهين الدالة على ذلك. ومثال ذلك قول الله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ

(١) تفسير الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي (١٠/ ١٥٨) بتصرف.

أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۙ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [الأنعام: ٩١]، وقال تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ [الأعراف: ١٤٥].

وقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [القصص: ٤٨-٥٠]، وقال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [هود: ١٣-١٤]، وقال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨].

فلما عجز الكفار أمام هذه الأدلة وغيرها طلبوا كتبا غير التي نزلت وبطريقة غير التي بها نزلت وبواسطة غير من بها نزل، ونبي غير الذي عليه نزلت كما حكي القرآن الكريم لنا ذلك فقال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [يونس: ١٥-١٦]، وقال عنهم تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن

نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٣]، وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ [سبأ: ٣١].

ورفضوا الإيمان لأن الذي نزل به جبريل كما بين ذلك تعالى فقال: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٩٧-٩٨]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: ١٠٢].

بل سخروا من الرسل ومن بشريتهم كما قال تعالى عن حوار الرسل جميعا لأممهم من أصحاب الحضارات وغيرهم ورد أممهم عليهم، وهو تعالى يصورهم وكأنهم جميعا على صعيد واحد؛ الرسل في جانب وأممهم في الجانب الآخر: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۖ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [إبراهيم: ٩-١١]، وقال تعالى: ﴿ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣]، وقال تعالى عن قوم نوح: ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا

﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٤]، وقال تعالى عن قوم هود وقيل ثمود وهو الراجح لذكر الصاعقة في إهلاكهم: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٣]، وقال تعالى عن ثمود: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٤]، وقال تعالى عن أهل مدين: ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٦]، وقال تعالى عن أهل قرية حبيب النجار صاحب قصة يس في خطابهم لأنبيائهم الثلاثة الذين بعثوا إليهم: ﴿قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ [يس: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤]، وقال تعالى عن قريش وكفار مكة: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان: ٤١].

فدعوى أهل الباطل من أصحاب الحضارات غالبا واحدة لا تكاد تتغير مع مرور الأزمان وإن اختلفت الصور وطرق العرض.

فالإيمان بالكتب المنزلة من عند الله تعالى سمة هذه الأمة وأحد مصادر عزها وهيمنتها، قال صاحب الظلال رحمه الله تعالى في ظلاله عند تفسير قوله تعالى: «﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ [البقرة: ٤] وهي الصفة اللائقة بالأمة المسلمة، وارثة العقائد السماوية ووارثة النبوات منذ فجر البشرية، والحفيظة على تراث العقيدة وتراث النبوة، وحادية موكب الإيمان في الأرض إلى آخر الزمان. وقيمة هذه الصفة هي الشعور بوحدة البشرية، ووحدة دينها، ووحدة رسلها، ووحدة معبودها. قيمتها هي تنقية الروح من التعصب الذميم ضد الديانات والمؤمنين بالديانات ما داموا على الطريق الصحيح. قيمتها هي الاطمئنان إلى رعاية الله للبشرية على تطاول أجيالها وأحقابها. هذه الرعاية البادية في توالي الرسل والرسالات بدين واحد وهدى واحد. قيمتها هي الاعتزاز بالهدى الذي تتقلب الأيام والأزمان وهو ثابت مطرد كالنجم الهادي في دياجير الظلام»[1].

(١) في ظلال القرآن: (١/ ٤١).

ثانيا: الإيمان بما جاء في الكتب تفصيلا:

«الكتب السماوية تمثل أوعية التعاليم الربانية للبشر، وهي جميعًا كتب هداية وإرشاد في المقام الأول، وكل ما يأتي في غضونها من الحكم والأمثال، والقصص، والأخبار، وحقائق العلم، وعجائب الكون في الزرع، والضرع، والأنفس والآفاق، وتصريف الرياح، وتسخير السحاب، وانتظام الفلك كل ذلك يأتي تبعًا للغرض الأول ووسيلة له، إذ المقصود هداية البشر إلي ربهم، والتزامهم تعاليمه التي تحقق سعادتهم في الدارين»[1].

وهذه التعاليم على حالين وهما:

أولًا: تعاليم اتفقت بين جميع الأنبياء في أصولها وهي التوحيد والعبادة كما قال تعالي عن دعوة جميع أنبيائه: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى عن دعوة نبيه نوح: ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝١ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴾ [نوح: ١-٣]، وقال تعالى: ﴿ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ۝٥٩ ﴾ [الأعراف: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٢٣ ﴾ [المؤمنون: ٢٣]، وقال تعالي عن دعوة نبي الله هود: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٦٥ ﴾ [الأعراف: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ ۝٥٠ ﴾ [هود: ٥٠].

وقال تعالى عن دعوة نبي الله صالح: ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ

---

(١) المنهاج القرآني في التشريع (ص٣٨١).

ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [النمل: ٤٥]، ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۘ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الأعراف: ٧٣]، ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ ﴾ [هود: ٦١].

قال تعالى عن دعوة نبي الله عيسي عليه السلام: ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [المائدة: ١١٧]، وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ ﴾ [المائدة: ٧٢].

ثانيًا: تعاليم تباينت بين الأنبياء، فكل نبي أنزل الله عليه من الشرائع ما يستقيم به قومه فهو لهم كاف ومغن عن كل تشريع سواه من حيث زمانه ومكانه، قال تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [المائدة: ٤٨].

لقد بعث الله كل نبي إلي قومه خاصة وأنزل عليه من الشرائع ما يصلحهم ويكفيهم، ولذا ما منهم من نبي إلا وجه نداءه ودعوته إلى قومه خاصة كما رأينا في الآيات السابقة: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ﴾ [الأعراف: ٥٩]، ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ﴾ [الأعراف: ٦٥]، ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ﴾ [الأعراف: ٧٣]، ﴿ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ﴾ [المائدة: ٧٢].

لقد تكفل الحق تبارك وتعالى بإصلاح كل أمة من أمم الأرض وخاصة أصحاب الحضارات منهم؛ فما خلت أمة من نبي منهم يتحدث بلسان قومه سيق معه من الشرائع التفصيلية ما يصلحهم ويسد جوعتهم واحتياجهم إلى تشريع غيره، بل ويعدّهم تعالى

ويؤهلهم لعبادته تعالى وفق أوامره وتعاليمه.

لقد وكل الله لأهل كل شرعة حفظها، كما قال تعالى عن شرعة من أواخر ما نزل من الشرائع الخاصة وهي التوراة: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤].

فقوله تعالى: «اسْتُحْفِظُوا». أي بما طلب منهم حفظه، فالسين والتاء إذا دخلت على الفعل عنت طلبه، قال الإمام القرطبي: «أي استودعوا من علمه، والباء متعلقة بالربانيين والأحبار كأنه قال: والعلماء بما استحفظوا. أو تكون متعلقة بـ«يحكم» أي يحكمون بما استحفظوا»[(١)]. وقال ابن كثير: «أي بما استودعوا من كتاب الله الذي أمروا أن يظهروه ويعملوا به»[(٢)]، وقال الإمام الشوكاني: «قوله: ﴿ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾ الباء للسببية، واستحفظوا أمروا بالحفظ: أي أمرهم الأنبياء بحفظ التوراة عن التغيير والتبديل، والجار والمجرور متعلق بـ«يحكم»: أي يحكمون بها بسبب هذا الاستحفاظ»[(٣)].

الواقع يشهد أن طبيعة الإنسان أنه يغلب عليه النسيان، فأني لمن وكل إليهم حفظ شريعتهم أن يحفظوها، وهذا ما حدث بالفعل فبدلوا وغيروا عمدا أو سهوا، وكأن الحق تبارك وتعالى أراد لكل شرعة أنزلها على نبي أن تؤدي مهمتها بإصلاح قومه ثم تنسى وتنسخ، وبعد أن عرفت كل أمة ربها ولزوم طاعته وعبادته لا تجد أمامها إلا الكتاب الخاتم الذي نزل على خاتم الأنبياء محمد ﷺ؛ وهو الكتاب الوحيد الذي لم يكل الله للعباد حفظه، بل لما نزل على النبي ﷺ خاف من تفلته فكان يردد مع جبريل عند تلاوته عليه فنهاه الحق تعالى عن ذلك وبين تعالى أنه وحده هو المتكفل بحفظه، فقال تعالى: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾

(١) تفسير القرطبي (٦/ ١٧٩).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٨٠).

(٣) تفسير فتح القدير (٢/ ٦٣).

﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ [القيامة: ١٦-١٩]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]، بل يقرن الحق تبارك وتعالى بين حفظه للقرآن ونسيان أذكر البشر وأحفظهم وهو آدم عليه السلام، فيقول تعالى: ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾ [طه: ١١٥].

فإذا كان أذكر البشر آدم عليه السلام نسي فأنى لمن دونه في الحفظ والذكر ألا ينسى؟

obeikandi.com

ثالثا: فضل القرآن الكريم ومنزلته:

لقد أنزل الله تعالى كتابه الخاتم وهو القرآن الكريم وجعله معجزة الدهر، ومد به النبوة مدًا لا يقبل النسخ، وخصه بخصائص ليست لغيره من الكتب، منها:

١- أنه معجزة الدهر: بمعنى أنه المعجزة الوحيدة التي أُيد بها نبي مرسل من عند الله لإثبات صدق نبوته ولم تتوقف بموت النبي كسائر المعجزات التي أُيد بها الأنبياء، فالعصا التي أيد الله بها نبيه موسى عليه السلام توقف تحولها لحية وكونها معجزة بعد موته عليه السلام، والطين الذي تحول لطير في يد المسيح عليه السلام لم يعد يراه الناس بعد رفع المسيح يتحول، وأما القرآن فهو معجزة باقية إلي قيام الساعة يتحدى بها حملته أهل الأرض جميعا إلى قيام الساعة أن يأتوا بمثل هذا القرآن أو بعضه أو سورة منه، فهو معجزة للنبي وأتباعه إلى قيام الساعة لا تزال تثبت وتبرهن صدق هذه الرسالة وصدق نسبتها إلى الله تعالى ولله الحمد والمنة، بل لا تزال تحاور أصحاب الحضارات بعده إلى قيام الساعة.

٢- كون شريعة القرآن الكريم لا تقبل النسخ: لقد خاطب القرآن الكريم الناس كافة من مشرق الأرض إلى مغربها ومن زمان النبوة إلي قيام الساعة قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [سبأ: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٥٨ ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان: ١]، وجاءهم بتشريع كاف للجميع، محفوظ بحفظ الله تعالى له حتى تتاح الفرصة لكل إنسان لكي يعبد الله على بصيرة ووحي من ربه، ومعه من الإعجاز ما يثبت صدقه، قال تعالى: ﴿ قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٨]، وفي الحديث الشريف: «**من قرأ القرآن فقد استدرج النبوة بين جنبيه، غير أنه لا يوحى إليه...**»(١).

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص باب أخبار في فضائل القرآن جملة رقم (١٠٨٦) (١/ ٥٥٢)، والبيهقي في شعب الإيمان، وصححه وأقره الذهبي.

٣- أن القرآن الكريم جمع الله تعالى فيه كل ما تفرق في الصحف والكتب السابقة من أصول الدين وشرائعه، قال تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ [الشورى: ١٣]. حتى لا يبقى لأصحاب الحضارات بعده احتياجا لتشريع معه ما بقى الزمان.

٤- لقد جاء القرآن في تشريعه مهيمنا على كل الشرائع السابقة وزاد عليها ما اقتضاه فارق الزمان الذي نزل فيه وكل زمان بعده، وتنوع الحضارات، وما اقتضاه تغير الأجيال وطبيعة كل جيل، من قواعد وأحكام تصلح لكل ذلك على الدوام، قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ [المائدة: ٤٨]، معنى «مُهَيْمِنًا عَلَيْهِ»: «أي شاهدا، وقيل: رقيبا وقيل مؤتمنا، وقيل: قفانا، يقال: فلان قفّان على فلان إذا كان يتحفظ أموره، فقيل: القرآن قفّان على الكتب، لأنه شاهد بصحة الصحيح منها وسقم السقيم»[(١)]، وقال الإمام الشوكاني: «والمعنى على قراءة الجمهور: أن القرآن صار شاهدا بصحة الكتب المنزلة ومقررا لما فيها مما لم ينسخ وناسخا لما خالفه منها ورقيبا عليها، وحافظا لما فيها من أصول الشرائع، وغالبا لها لكونه المرجع في المحكم منها والمنسوخ ومؤتمنا عليها لكونه مشتملا على ما هو معمول به منها وما هو متروك»[(٢)]، وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠].

٥- لقد جعل الله تعالى من معجزات هذا الكتاب أنه مع قلة الحجم متضمنا للمعنى الجم، بحيث تقصر العقول البشرية في كل الحضارات بكل إمكاناتها وما معها من آلات حديثة أو ستستحدث عن إحصائه أو استيفائه، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [لقمان: ٢٧]،

---

(١) نزهة القلوب في تفسير غريب القرآن للسجستاني في تفسير الآية الذكورة.

(٢) فتح القدير للشوكاني (٢/ ٧٠).

وقال تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾ [الكهف: ١٠٩].

٦- لقد حفظ الله تعالى كتابه ليكون حجة الله تعالى الدائمة على عباده بعد ختم النبيين، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤١-٤٢]، وقال تعالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١٥].

٤- الحوار في البعث والجزاء:

إن الإيمان باليوم الآخر يعنى الربط بين الدنيا والآخرة، والمبدأ والمصير، والعمل والجزاء، ويشعر الإنسان أنه ليس مهملًا، وأنه لم يخلق عبثًا ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، وأنه لن يترك سدى ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ [القيامة: ٣٦]، وأن العدالة المطلقة في انتظاره، ليطمئن قلبه وتستقر بلابله[(١)]، ويفيء إلى العمل الصالح، وإلى عدل الله ورحمته في نهاية المطاف.

واليقين بالآخرة هو مفرق الطريق بين من يعيش بين جدران الحس المغلقة، ومن يعيش في الوجود المديد الرحيب. بين من يشعر أن حياته على الأرض هي كل ما له في هذا الوجود، ومن يشعر أن حياته على الأرض ابتلاء يمهد للجزاء، وأن الحياة الحقيقية إنما هي هنالك وراء هذا الحيز الصغير المحدود.

---

(١) رجل بلابل خفيف اليدين ولا يخفى عليه شيء، لسان العرب (١١/ ٦٣)، وقال ابن الأعرابي: البلبلة تفريق المتاع وتبديده، قال ابن عباد: البلبلة خرزة سوداء من صدف، وقال غيره البلبلة، شد الهم والوساوس في الصدر، والبلابل جمع بَلبال تاج العروس (١/ ٦٨٩١).

كما قال مؤمن آل فرعون لقومه: ﴿ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ ﴾ [غافر: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

إن الإيمان باليوم الآخر هو مفتاح الإيمان بأصول الإيمان الستة، فمن أيقن باليوم الآخر آمن بالله مالك ذلك اليوم، ومن آمن بالله آمن بملائكته وكتبه ورسله.

واليوم الآخر أمر غيبي محض لم تظهر للناس بوادره، كما قال تعالى: ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾ [النمل: ٦٥-٦٦].

ولا سبيل إلى معرفة شيء منه على الحقيقة إلا عن طريق الوحي الإلهي والمنقول إلينا عن طريق رسل الله المعصومين، ولذا أوغل الناس في التشكيك فيه والريب منه قديما وحديثا، أصحاب حضارة أو غيرهم، وجاء بيان القرآن في أمره قويًا شديدا، فأفرده الحق تبارك وتعالى بطول الذكر وكثرته، ولا أدل على الاهتمام به من كون الناظر إلى أسماء السور -وهي عنوان لما فيها- يجد طابع هذا الاهتمام البالغ بشأن اليوم الآخر، وهو يأخذ عدة مظاهر؛ ومنها:

أ - بعض السور تسمى باسم من أسماء هذا اليوم. مثل سور: الواقعة، الحاقة، القيامة، النبأ، الغاشية، القارعة.

ب- بعض السور تسمي بشيء من المظاهر الكونية الهائلة التي تمهد له. مثل سور: الدخان، التكوير، الانفطار، الانشقاق، الزلزلة.

ج - بعض السور تسمي باسم ما يقع في هذا اليوم أو ما يصاحبه. مثل سور: الأعراف، الزمر، الجاثية، الحشر، التغابن، المعارج»[1].

أضف إلى هذا أن معظم سور القرآن لا تخلو من ذكر القيامة أو ما يتعلق بها مرة أو مرات عديدة في السورة الواحدة.

---

(١) المنهاج القرآني في التشريع (ص٣٥٧- ٣٥٨) بتصرف .

بل إن جميع الكتب المنزلة من الله تعالى على جميع الأنبياء والموجهة لأصحاب الحضارات وغيرهم من البشر قد اهتمت أعظم الاهتمام بأمر يوم القيامة وشئون الآخرة، حتى إنها من أولها إلي آخرها وهو القرآن الكريم قد أظهرت غاية الاهتمام بهذا الأصل إثباتا وتدليلا، وبيانا وتفصيلا، ودحضا لشبه المنكرين، وتأكيدا وتكريرا لجوانبه جميعا، حتى كأن الناس يرونه رأي العين، ويسمعون ضجة القيامة وهول المحشر والفزع الأكبر وما وراء ذلك من نعيم مقيم أو عذاب وجحيم.

دعوة الأنبياء لأصحاب الحضارات للإيمان باليوم الآخر:

ومنذ فجر التاريخ ورب العباد يذكرنا باليوم الآخر، فلقد أخذ الله العهد على آدم وذريته وأشهدهم على أنفسهم ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ استعدادًا لليوم الآخر، فقال تعالى عن ذلك: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، بل إن مفسد الحضارات ومضل البريات إبليس طلب من ربه لما طرده من الجنان الإنظار إلي يوم القيامة لتتاح له أطول فرصة لإضلال العباد، وعن هذا قال تعالى: ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٦٢][1].

لقد جاء الوعيد للبشرية من عذاب يوم القيامة مع بدء هبوطهم إلي الأرض، قال تعالى: ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه: ١٢٣-١٢٤].

وهذا نبي الله نوح يحذر قومه وهم أصحاب حضارة من هذا اليوم العظيم كما في قوله تعالى عنه: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ

---

(١) لأحتنكن: قال ابن عباس: لأستولين، وقال ابن زيد: لأضلنهم، وقال الطبري: لأستأصلنهم، وقال الألوسي: لأستولين عليهم استيلاء قويا من قولهم حنك الدابة واحتنكها إذ جعل في حنكها الأسفل حبلا يقودها به.

أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأعراف: ٥٩]، وحكي تعالى عنه قوله: ﴿ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ [هود: ٢٦]، وقال تعالى عن نبيه هود وتحذيره لقومه وهم أصحاب حضارة: ﴿ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ ﴾ [الشعراء: ١٣٥]، وقال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأحقاف: ٢١]، وقال تعالى عن نبيه شعيب حين حذر مدين وهم أصحاب حضارة من ذلك اليوم العظيم فقال: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ ﴾ [هود: ٨٤]، وقال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [العنكبوت: ٣٦].

وهذا نبي الله إبراهيم يحذر منه قومه: ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

وقال تعالى عن خاتم أنبيائه وصفوة رسله محمد ﷺ: ﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾ [هود: ٣]. وقال تعالى على لسانه: ﴿ فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [الزمر: ١٥]، وقال تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الممتحنة: ٣].

تكذيب أصحاب الحضارات باليوم الآخر وأقوالهم فيه:

وحكي الحق تبارك وتعالى أقوال بعض أصحاب الحضارات على مر التاريخ، وتعجب

كيف اتفقت في مضمونها وتشابهت كأنما أملاها بعضهم لبعض مع ما بينهم من تفاوت زماني ومكاني، وصدق تعالى حين قال: ﴿ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ [الذاريات: ٥٣]، وها هي أقوالهم على ألسنة جميع البشر: ﴿ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ [الأنعام: ٢٩]، وقالت عاد أو ثمود: ﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [المؤمنون: ٣٥-٣٧]، وقال كفار قريش: ﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ [الجاثية: ٢٤].

ومن أسباب تكذيبهم بالآخرة ركونهم للدنيا وفتنتهم بزينتها من مال وبنين وإمهال الله لهم حتى ظنوا أن من أعطاهم المال والبنين -أكثر من غيرهم- راض عنهم لذا أعطاهم، ورضاه يعني عندهم أنه أكثر عطاء لهم في الآخرة لو كان هناك آخرة، وقد قال ذلك صاحب الجنتين لصاحبه وهو يحاوره: ﴿ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾ [الكهف: ٣٤-٣٦]، بل قال الكثير غيره فرد الله عليهم بقوله تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٥-٦١].

الرد على تكذيب أصحاب الحضارات باليوم الآخر وبيان مدى الحاجة إليه:

أ. الإيمان باليوم الآخر هدف وغاية ومصير:

لقد خلق الله الموت والحياة ليختبر ويبتلي عباده، كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾ [الملك: ٢]، وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ

رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [هود: ٧]، وقال تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، فانقسم الناس إلى محسن ومسيء، وظالم ومظلوم، ومؤمن وكافر، ومصلحين في الأرض ومفسدين فيها.

ولو انتهت الحياة بموت أبدي لاستوت هذه الأطراف جميعها، فيكون هذا الخلق العظيم عبثا وباطلا إذ يستوي فيه المحسن والمسيء، وتعالى الله عن ذلك الفعل علوا كبيرا.

لذا كتب الله على عباده الفناء وكتب لذاته البقاء وحدد لعباده موعدًا ولقاء، وجعله غاية لفصل القضاء ولتوفية الجزاء وصيانة لوجودهم عن العبث ولمصيرهم عن البطلان، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴾ [الحجر: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [العنكبوت: ٥].

وهنا ربط الحق تبارك وتعالى بين الخلق والساعة وبين السعي والساعة ليقطع على أهل الجاهلية ظنهم، وأن الجزاء لا محالة واقع، والحساب لا محالة قائم واللقاء لا محالة آت. قال تعالى: ﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ [الأنعام: ١٣٤]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ﴾ [الذاريات: ٥-٦]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴾ [الطور: ٧-٨]، وقال تعالى: ﴿ سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴾ [المعارج: ١-٢]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴾ [المرسلات: ٧]، وقال تعالى: ﴿ إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴾ [الواقعة: ١-٢].

بل يحسم القرآن الأمر حسما بالغا بقوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ۝ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾ [ص: ٢٧-٢٨]، وقال تعالى: ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [القلم: ٣٥-٣٦]، وقال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا

خَلَقْنَكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴾ [المؤمنون: ١١٥-١١٦]، وقال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية: ٢١]، فلابد من يوم يوفي فيه المحسن من أصحاب الحضارات وغيرهم على إحسانه كما قال تعالى: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ [الرحمن: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ [المطففين: ٣٤-٣٦]، ويعلم المجرم فيه منهم حقيقة إجرامه ويجنى فيه شوك عصيانه كما قال تعالى: ﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴾ [القمر: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ ﴾ [النحل: ٣٨-٣٩]، وقال تعالى: ﴿ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

ب. الإيمان باليوم الآخر مصدر قوة:

فالإيمان باليوم الآخر من أقوى المعينات علي فعل الخيرات وأداء الواجبات، وإلزام الحجة لأصحاب الحضارات وغيرهم، لقوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ [البقرة: ٤٥-٤٦]، وقال تعالى: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٢].

وقال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١]، وقال تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ۚ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾ [الممتحنة: ٤]، وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [الممتحنة: ٦]، فالمؤمن الذي يرجو الله واليوم الآخر هو الذي يقوى على الإتيان

بعزائم الدين والتأسي بالنبيين لا غيره، قال صاحب زاد المسير: «والمعنى أن الأسوة برسول الله إنما كانت لمن كان يرجو الله واليوم الآخر»[١]. قال الإمام الشوكاني في تفسيره: «واللام في ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾ متعلق بحسنة أو بمحذوف هو صفة لحسنة. أي: كائنة لمن يرجو الله. وقيل: إن الجملة بدل من الكاف في «لكم» ورده أبو حيان وقال: إنه لا يبدل من ضمير المخاطب بإعادة الجار. ويجاب عنه بأنه قد أجاز ذلك الكوفيون والأخفش وإن منعه البصريون»[٢].

ومن آمن بالله ووحيه وأيقن بالآخرة مكنه الله من الهداية ورزقه الفلاح، لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٤-٥].

يقول الإمام البيضاوي: «ومعنى الاستعلاء في «عَلَى هُدىً» تمثيل تمكنهم من الهدى واستقرارهم عليه بحال من اعتلى الشيء وركبه، وقد صرحوا به في قولهم:

امتطى الجهل وغوى واقتعد غارب الهوى.

وذلك إنما يحصل باستفراغ الفكر وإدامة النظر فيما نصب من الحجج، والمواظبة على محاسبة النفس في العمل، ونكر «هدى» للتعظيم، فكأنه أريد به ضرب لا يبلغ كنهه ولا يقادر قدره»[٣].

ولقد بين الحق تبارك وتعالى أن شرط قبول العمل كونه صالحا -موافقا لشرع الله- خالصا لوجهه تعالى، وهذا الأمر لا يتحقق إلا لمن يرجو ويستهدف لقاء ربه، لذا قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

---

(١) تفسير زاد المسير (٦/ ٣٦٧).

(٢) تفسير فتح القدير (٤/ ٣٨٤).

(٣) تفسير البيضاوي (١/ ١٢٩).

ج. ترك الإيمان سبب الشرور والمعاصي:

«يفسر القرآن الكريم كثيرا من مظاهر السلوك الجاهلي الأعوج لكثير من أصحاب الحضارات وغيرهم بعلته الأصلية، وهي إنكار الآخرة، واعتقاد أن هذه الدنيا هي بداية ونهاية المطاف ولا شيء بعدها: ﴿ وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ﴾ [الأنعام: ٢٩]، ومن ثم فلابد -بزعمهم- من انتهازها انتهازا، وتحصيل أقصى اللذات والشهوات فيها، وتحقيق أكبر قدر من المصالح الشخصية كالمال، والمجد، والجاه، والسلطان، والشهرة، أو المصالح القومية ونحوها، ولو أدى ذلك إلي خراب الأرض، وإهلاك الحرث والنسل، والارتفاع على جثث الآخرين نتيجة غلظة القلوب، وموت الشعور بموقف الحساب، وفقدان حاسة اليقين بالرجعة والجزاء»[1].

ومن لا يوقن بالآخرة يتجرأ على اقتراف المعاصي، لقوله تعالى: ﴿ وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ۝٤ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ۝٥ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [المطففين: ١-٦]، فدأبهم التطفيف والكيل بمكاييل مختلفة تماما بين ما هو له أو عليه، وعلى الضعيف واليتيم معتدٍ، لقوله تعالى: ﴿ أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ ﴾ [الماعون: ١-٢]، بل لا يعرف للهداية سبيلا لقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴾ [المؤمنون: ٧٤]، لا يحتمل قلبه ذكر الله، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴾ [الزمر: ٤٥]، لا ترى منهم إلا قلوبا طائشة حمقاء، تسارع إلي مصارعها في كل موطن وهى تظن نفسها على شيء، قال تعالى: ﴿ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ ﴾ [النحل: ٢٢].

ولذلك عقب القرآن الكريم بذكر تهكمهم على الوحي الإلهي، فقال تعالى في الآيات التي

---

(١) المنهاج القرآني في التشريع (ص٣٦٠).

بعدها: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ [النحل: ٢٤-٢٥]، يقول الإمام البيضاوي في تفسير الآية الأولى: «بيان لما اقتضى إصرارهم بعد وضوح الحق وذلك عدم إيمانهم بالآخرة، فإن المؤمن بها يكون طالبا للدلائل متأملا فيما يسمع فينتفع به، والكافر بها يكون حاله بالعكس»[(١)]. ويظهر من هذه الآيات وغيرها أن عدم الإيمان بالآخرة علة متفردة لكل خلل في الاعتقاد أو السلوك.

د. القيامة حقيقة واقعة لابد منها:

القيامة والدار الآخرة من عقائد الإسلام الثابتة، جاءت على لسان كل رسول أرسله الله لعباده خاصة أصحاب الحضارات منهم، والقرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة هما أوثق المصادر حديثا عنها، وتصحيحا لعبث الفكر البشري في شأنها، ولتحريفات أهل الكتاب في أخبارها.

ويناقش القرآن الكريم الذين ينكرونها، أو يظنونها خدعة كبيرة اخترعها الرسل توسلا للإصلاح، واستتباع الناس، أو اخترعها الإنسان هربا من ضغط الواقع إلي عالم المثالية والخيال، كما يزعم أدعياء الفكر في كل العصور.

لقد دأب القرآن الكريم علي تكرير أحقيتها، وصدق وقوعها، بكل الأساليب كالخبر المجرد، والوعد المؤكد، وتصوير مقدماتها، وأحوالها، ومنازلها، وأهوالها، ومواقف الحساب، والميزان، والصراط، و«الجنة» وغرفها، وأنهارها، وحورها، وولدانها، وشرابها، وصنوف طعامها وفاكهتها.

وكذلك يخبر خبر الجزم واليقين عن «النار»، ودركاتها، وأبوابها، وخزنتها وعددهم وصفتهم، وما فيها من طعام الزقوم، والغسلين، وشراب الصديد، والحميم، حتى تخاصم أهل النار، وتلاعنهم، وندمهم، واستجدائهم التخفيف، وغير ذلك مما يطول ذكره[(٢)].

---

(١) تفسير البيضاوي (١/ ٣٩٢).

(٢) المنهاج القرآني في التشريع (ص٣٦٢- ٣٦٣) بتصرف.

بل ما أقسم الله على شيء كما أقسم على وقوع ذلك اليوم، فقال تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰذِبِينَ ﴾ [النحل: ٣٨-٣٩]، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ: ٣]، وقال تعالى: ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [التغابن: ٧]، وقال تعالى: ﴿ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ [يونس: ٥٣].

ويؤكد الحق تعالى وقوعها تأكيدا جازما بقوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ [الحج: ٧]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَـَٔاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [غافر: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴾ [طه: ١٥].

ويبرزها تعالى في مقام الأمر الذي وقع وفرغ منه، قال تعالى: ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [النحل: ١].

إن أهل الباطل كثيرا ما يجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق مع قناعة نفوسهم بهذا الحق ومن ذلك أمر الساعة كما قال عنهم تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾، فأفحمهم الحق تعالى بقوله: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٥-٢٦].

فالذي أحيا آباءكم من قبل حتى قضوا آجالهم، وأحياكم من بعهدهم بعد أن كنتم جميعا عدما، ثم أمات آباءكم فلم يعجزه أحد منهم ولا منكم ثم يحييكم جميعا يوم جمعكم ليوم القيامة لا ريب فيه.

من أدلة وقوعها:

أولا: الأدلة العقلية:

أ- الإقرار لله بالخلق ابتداء، فالقادر على الخلق قادر على الإعادة. قال تعالى: ﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ** ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ** ﴾ [العنكبوت: ٦١]، وقال تعالى: ﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ** ﴾ [الزخرف: ٩].

فالذي خلق ابتداء من غير مثال سابق أهون عليه الإعادة. قال تعالى: ﴿ **وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ** ﴾ [الروم: ٢٧].

ولله المثل الأعلى، فكلمة «أهون» لا تعني أن هناك شيئا أثقل على الله تعالى من شيء، بل تعني: أن الإعادة أهون عليه من البداية وكل هين عليه، قاله مجاهد وأبو العالية. وهناك قول ثان وهو: أن أهون بمعنى هين، فالمعنى: وهو هين عليه. وقد يوضع أفعل في موضع فاعل ومثله قولهم في الأذان: الله أكبر، أي: الله كبير. قال الفرزدق:

إن الذي سمك السماء بني لنا ... بيتا دعائمه أعز وأطول

وقال معن بن أوس المزني:

لعمرك ما أدري وإني لأوجل ... على أينا تغدو المنية أول

أي: وإني لوجل. وقال غيره:

أصبحت أمنحك الصدود وإنني ... قسما إليك مع الصدود لأميل[1]

---

(١) هذا البيت الأول من قصيدة لمعن بن أوس المزني وهو أخ لعبد الله بن الزبير من الرضاعة، كتاب مختصر المعاني لسعد الدين التفتازاني (١/ ٢٨٦).

قال الإمام القرطبي رحمه الله: «وأهون بمعنى هين أي الإعادة هين عليه. قاله الربيع بن خيثم والحسن. فأهون بمعنى هين لأنه ليس شئ أهون على الله من شئ. قال أبو عبيد: ومن جعل أهون يعبر عن تفضيل شئ على شئ فقوله مردود بقوله تعالى: ﴿ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾ [النساء: ٣٠]، وبقوله: ﴿ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، والعرب تحمل أفعل على فاعل، ومنه قول الفرزدق:

إن الذي سمك السماء بنى لنا ... بيتا دعائمه أعز وأطول[1]

أي دعائمه عزيزة طويلة. وقال آخر:

لعمرك ما أدري وإني لأوجل ... على أينا تعدو المنية أول[2]

أراد: إني لوجل. وأنشد أبو عبيدة أيضا:

إني لأمنحك الصدود وإنني ... قسما إليك مع الصدود لأميل

أراد لمائل. وأنشد أحمد بن يحيى:

تمنى رجال أن أموت وإن أمت ... فتلك سبيل لست فيها بأوحد[3]

أراد: بواحد. وقال آخر:

لعمرك إن الزبر قان لباذل ... لمعروفه عند السنين وأفضل

أي وفاضل. ومنه قولهم: الله أكبر إنما معناه الله الكبير. وروى معمر عن قتادة قال: «في قراءة عبد الله بن مسعود «وهو عليه هين». وقال مجاهد وعكرمة والضحاك: «إن المعنى أن

---

(١) الفرزدق: همام بن غالب الأموي ت١١٠هـ، ديوانه (١٥٥٢)، كتاب الشعر والشعراء (ص٤٧١).

(٢) البيت لأبي عبيدة الأحوص بن محمد الأنصاري، أموي توفي ١٠٥ه، والقصيدة في كتاب الإعجاز والإيجاز باب برد بن بشار (١/ ٢٥)، وطبقات ابن سلام (ص٩٦)، والشعر والشعراء (ص٥١٨). الأغاني (٤/ ٢٢٤).

(٣) نسب الألوسي وابن كثير وغيرهم هذا البيت للإمام الشافعي رحمه الله ونسبه القرطبي وغيره إلي أحمد بن يحيى ثعلب، ونسبه الطبري وابن الجوزي والشوكاني وغيرهم إلي طرفة بن العبد.

الإعادة أهون عليه -أي على الله- من البداية أي أيسر وإن كان جميعه على الله تعالى هينا، وقاله ابن عباس. ووجهه أن هذا مثل ضربه الله تعالى لعباده يقول: إعادة الشيء على الخلائق أهون من ابتدائه، فينبغي أن يكون البعث لمن قدر على البداية عندكم وفيما بينكم أهون عليه من الإنشاء. وقيل: الضمير في «عليه» للمخلوقين أي: وهو أهون عليه، أي: على الخلق يصاح بهم صيحة واحدة فيقومون ويقال لهم: كونوا فيكونون فذلك أهون عليهم من أن يكونوا نطفا ثم علقا ثم مضغا ثم أجنة ثم أطفالا ثم غلمانا ثم شبانا ثم رجالا أو نساء. وقاله ابن عباس وقطرب. وقيل: أهون أسهل قال:

وهان على أسماء أن شطت النوى ... يحن إليها واله ويتوق[1]

أي سهل عليها. وقال الربيع بن خيثم في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ قال: ما شئ على الله بعزيز. قال عكرمة: تعجب الكفار من إحياء الله الموتى فنزلت هذه الآية ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي ما أراده جل وعز كان. وقال الخليل: المثل الصفة أي وله الوصف الأعلى ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ كما قال: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الرعد: ٣٥]: أي صفتها. وعن مجاهد: المثل الأعلى قول لا إله إلا الله ومعناه: أي الذي له الوصف الأعلى أي الأرفع الذي هو الوصف بالوحدانية، وكذا قال قتادة: إن المثل الأعلى شهادة أن لا إله إلا الله ويعضده قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [الروم: ٢٨]، وقال الزجاج: وله المثل الأعلى في السماوات والأرض أي قوله: وهو أهون عليه قد ضربه لكم مثلا فما يصعب ويسهل، يريد التفسير الأول»[2].

قال الإمام الزمخشري: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] فيما يجب عندكم ويقاس على أصولكم ويقتضيه معقولكم؛ لأن من أعاد منكم صنعة شيئ كانت أسهل عليه وأهون من إنشائها، وتعتذرون للصانع إذا خطئ في بعض ما ينشئه بقولكم: أول الغزو أخرق، وتسمون الماهر في صناعته معاودا، تعنون أنه عاودها كرة بعد أخرى حتى مرن عليها وهانت عليه. فإن

---

(١) نسبه ابن منظور لابن بري، لسان العرب (١٥/ ٣٧١)، تاج العروس (١/ ٨٦٧٢).

(٢) تفسير القرطبي (١٤/ ٢١).

قلت: لم ذكر الضمير في قوله: ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ والمراد به الإعادة؟ قلت: معناه: أن يعيده أهون عليه. فإن قلت: لم أخرت الصلة في قوله: ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ وقدمت في قوله: ﴿ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ [مريم: ٢١]؟ قلت: هناك قصد الاختصاص وهو محزه فقيل: هو علي هين وإن كان مستصعبا عندكم أن يولد بين هم وعاقر، وأما ها هنا فلا معنى للاختصاص، كيف والأمر مبني على ما يعقلون من أن الإعادة أسهل من الابتداء، فلو قدمت الصلة لتغير المعنى. فإن قلت: ما بال الإعادة استعظمت في قوله: «ثم إذا دعاكم» حتى كأنه فضلت على قيام السماوات والأرض بأمره ثم هونت بعد ذلك؟ قلت: الإعادة في نفسها عظيمة ولكنها هونت بالقياس إلى الإنشاء. وقيل الضمير في «عليه» للخلق»[1].

ويقرر تعالى بقوله: ﴿ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾ [يونس: ٤]، وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [الروم: ١١]، ويؤنبهم بقوله: ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ [يونس: ٣٤]، ويبكتهم بقوله تعالى: ﴿ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [النمل: ٦٤]، ويرد عليهم بقوله: ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس: ٧٩].

ب- يسر الإعادة وسهولتها وسرعتها. قال تعالى: ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ [لقمان: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ [ق: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾ [المعارج: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴾ [الصافات: ١٩]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴾ [ص: ١٥]، وقال تعالى: ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴾ [يس: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴾ [يس: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ

(١) تفسير الكشاف للزمخشري (٥/ ٢٤٨).

﴿لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٥٣].

ج- قدرة الله تعالى المطلقة على خلق ما هو أعظم من الإنسان كخلقه السماوات والأرض وما بينهما وما بعدهما قال تعالى: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصافات: ١١]، وقال تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ۝٢٧ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ۝٢٨ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ۝٢٩ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۝٣٠ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ۝٣١ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ [النازعات: ٢٧-٣٢]، وقال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: ٩٩]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

فالذي خلق السماوات والأرض وهما أعظم وأكبر من خلق الإنسان قادر على أن يفعل ما دون ذلك وهو الإعادة بعد الإماتة.

د - تأكيد القرآن على زوال الدنيا وقصر أمدها:

إن تسمية الدنيا عند الناس بالحياة الدنيا لهو دليل على وجود حياة عالية وآخرة، وقيل أصلها من الدنو وقيل من الدناءة، وعن المعنى الأول قال صاحب لسان العرب: «وفي حديث الحج الجَمْرة الدُّنْيا أَي القَرِيبة إِلى مِنىً وهي فُعْلى من الدُّنُوِّ، والدُّنْيا أَيضًا اسمٌ لهذه الحَياةِ لبُعْدِ الآخرة عَنْها، والسماء الدُّنْيا لقُرْبها من ساكِني الأَرْضِ، ويقال سماءُ الدُّنْيا على الإِضافة»[1].

وعن المعنى الثاني قال صاحب لسان العرب: «والدَّنيئةُ النَّقيصةُ، ويقال: ما كنتَ يا فلانُ دَنِيئًا ولقد دَنُؤْتَ تَدْنُؤُ دَناءةً مصدره مهموز.

(١) لسان العرب (١٤/ ٢٧١).

فُرِق بين مصدر دَنَأَ ومصدر دَنا بجعل مصدر دَنا دَناوةً ومصدر دَنَأَ دَناءةً كما ترى ابن السكيت يقال: لقد دَنَأْتَ تَدْنَأُ أَي سفَلْتَ في فِعْلك ومجُنْتَ، وقال اللهّ تعالى: ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ ﴾ [البقرة: ٦١]. قال الفرّاء: هو من الدَّناءة»[(١)].

وقد استعملت في القرآن الكريم على المعنيين وكذلك في السنة النبوية المطهرة.

فعلى المعنى الأول سماها القرآن العاجلة فقال تعالى: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴾ [الإسراء: ١٨]، وقال تعالى: ﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴾ [القيامة: ٢٠-٢١]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴾ [الإنسان: ٢٧].

وفي الحديث قال رسول الله ﷺ: «**مالي والدنيا ما أنا والدنيا إنما مثلي ومثل الدنيا كراكب ظل تحت شجرة ثم راح وتركها**»[(٢)].

وكيف لا وأعمار أمة محمد بين الستين والسبعين عاما، ثلثها طفل غير مكلف والباقي من عمره ثلثه نوم بلا تكليف فكم بقي له؟ ثلاثون عاما أو يزيد قليلا، فكم تساوي في عمر الزمان.

وعلى المعنى الثاني سماها تعالى متاعا فقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴾ [الرعد: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴾ [القصص: ٦١]، وقال تعالى: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [الحديد: ٢٠].

---

(١) لسان العرب (١/ ٧٧).

(٢) رواه الإمام أحمد في مسند عبد الله بن مسعود باب مالي والدنيا إنما مثلي ومثل الدنيا رقم (٣٧٨١)، ورواه ابن ماجة في الزهد عنه رقم (٤٢٤٨)، وفي مسند أبي يعلى والبزار.

معنى المتاع قال ابن منظور: «وقد ذكر الله تعالى المَتاعَ والتمتُّعَ والاسْتمتاعَ والتَّمْتِيعَ في مواضعَ من كتابه ومعانيها وإِن اختلفت راجعة إِلى أَصل واحد قال الأَزهري[١]: فأَما المَتاعُ في الأَصل فكل شيء يُنْتَفَعُ به ويُتَبَلَّغُ به ويُتَزَوَّدُ والفَناءُ يأْتي عليه في الدنيا».

قال الأَزهري: «وكذلك قوله تعالى: «يا قوم إِنما هذه الحياة الدنيا مَتاعٌ» أَي بُلْغةٌ يُتَبَلَّغُ به لا بقاء له»[٢]، وقال الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه عنها: «خير الدنيا أربع مطعم وملبس ومنكح ومركب، وخير طعامها إفراز حشرة، وخير ثيابها إفراز دودة، وخير مناكحها مبال في مبال، وخير مراكبها الخيل على ظهرها يُصرع الرجال»[٣]. بل وصفها تعالى بمتاع الغرور فهي بُلغَة أيام، أي ما يحتاج إليه المسافر من زاد لرحلته، فسرعة ذهابها دليل قيام ما بعدها من قيامة وبعث وحساب.

هـ- المقدمات والمشاهد:

لقد أخبر الحق تبارك وتعالى عما يحدث يوم القيامة تفصيلا، بل ذكر أدق التفاصيل الحسية التي تقع في ذلك اليوم.

ومن مقدمات ذلك الانقلاب الكوني الرهيب الذي لا يبقى معه شيء على حاله فلا حضارات ولا نظم ولا قوانين بشرية ولا طاقة للبشرية في فعل شيء أو دفع شيء، قال تعالى: ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴾ [الطور: ٧-٨]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴾ [المرسلات: ٧]، وقال تعالى: ﴿ سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴾ [المعارج: ١-٢]، وقال تعالى: ﴿ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴾ [النجم: ٥٨].

فعند وقوعها السماء تشقق وتنفطر وتكشط وتطوى كطي السجل للكتب، والأرض ترج

---

(١) الأزهري: صاحب كتاب تهذيب اللغة، من مشاهير أولى معاجم اللغة، والذي قال عنه ابن منظور لم أجد في كتب اللغة أجمل منه، وقال الزمخشري: ألفه الأزهري بعدما تجاوز السبعين ونهج فيه على منوال كتاب «العين»واشهر نسخه ما كتبه ياقوت الحموي سنة٦١٦هـ.

(٢) لسان العرب لابن منظور (٨/ ٣٢٨).

(٣) افراز الحشرة: عسل النحل، افراز الدودة: الحرير، مبال في مبال: مواضع البول تلتقي مع مواضع البول، على ظهرها يصرع الرجال: تنهي أجالهم بحادث أو غيره فيموتون.

وتزلزل وتدك وتبدل، والجبال تسير وتبس وتصير كثيبا مهيلا فعهنا منفوشا فهباء منثورا، فتدك دكا وتنسف نسفا فتكون قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا، والقمر يخسف وبالشمس يجمع، والشمس تكور ونورها يذهب وحرّها يسعّر ومن رءوس العباد تقرّب، والكواكب تتناثر والنجوم تصير كدور سود، والبحار تفجر وماؤها يسجّر والعشار تعطل والوحوش تحشر وللقصاص تُقدّم والنفوس تزوج ومع أمثالها تحشر وللحساب تقدم وبالحسرات تملأ وبالذلة ترهق وبالعرق تتصبب والأبصار تشخص وللقهار تخشع، والقلوب واجفة خاوية لا تدري ما يفعل بها، ولم لا والكتب أمامها متطايرة وبأوزارها محملة ودقائق الأعمال فيها محصية، والخلاصة: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، والوحي الإلهي إذ يسطر هذه المظاهر ليدل الناس وخاصة أصحاب الحضارات ومن عاشوا في ظلالها على أن القيامة أمر حسي مقصود لذاته، ولا يشفع للناس في ذلك فلسفاتهم وادعاءاتهم بأن البعث روحي أو نفسي أو لون ترقي أو وهم كما وَهِمَ الواهمون أو المحرفون من أهل الكتاب.

لقد أراد الله عز وجل أن يوقن عباده بحقيقة هذا اليوم الفصل الذي لا هزل فيه ولا لعب ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴾ [الطارق: ١٣-١٤] قبل أن ينزل بهم فيعدوا له عدة ويجهزوا له زاده، ففصل لهم العدة وبين لهم الزاد وذكر لهم من مشاهد ذلك اليوم ما يجدوا فيه ثمرة كل زاد وعقوبة من حرم الزاد، بل في تفاصيل المشاهد ما يحمل على التزود والطاعة حملا ويزجر عن المخالفة والمعاصي زجرا، ويقوم بين يدي الساعة عذرا أو نذرا.

أمثلة من مشاهد القيامة:

أولا: الفزع الأكبر:

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴾ [النمل: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴾ [النازعات: ٣٤-٣٥]، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ

جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴾ [المعارج: ٨-١٥].

الكل يريد النجاة بنفسه: ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس: ٣٤-٣٧]، وقال تعالى: ﴿ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [المرسلات: ٣٥-٣٧].

وأنى للأسباب أن تنفعهم، قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ [النبأ: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴾ [الكهف: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِا۟ىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴾ [الفجر: ٢١-٢٦].

وينجي الله المؤمنين من هذا الشر المستطير قال تعالى: ﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، ويقع في المحظور المجرمون فيتمنوا العود ولا فوت، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ١٢]، وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأنعام: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ [سبأ: ٥١]، وقال تعالى: ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ [فاطر: ٣٧].

ثانيا: يوم الحساب:

يذكر الرحمن للخلق بعض مواقف الحساب التي تنخلع منها القلوب وتزيغ معها الأبصار والتي منها:

١- **تطاير الصحف:** والتي دون فيها كل عمل العبد ما نسي منه وما ذكر قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [المجادلة: ٦]، وهو الحسيب على نفسه قال تعالى: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء: ١٣-١٤].

ويا ويله من لحظة تطاير الكتب فالسعيد من جاءه كتابه عن يمينه فتلقفه بيمينه ﴿ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧١-٧٢]، وقال تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴾ [الحاقة: ١٩-٢٠].

ويالها من لحظة ندمه وغمه حين يأتيه كتابه من وراء ظهره فيأخذه بشماله خاشعا من الذل لا يكاد يرفع بصره فيمن حوله ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴾ [الحاقة: ٢٥-٢٧].

وقال تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴾ [الانشقاق: ٧-١٢].

٢- **موقف الدفاع:**

سيكل الله تعالى كل إنسان لنفسه ليتولى الدفاع عنها، قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [النحل: ١١١]، وقال تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء: ١٤]، وقال تعالى: ﴿ ۞ ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴾ [الصافات: ٢٢-٢٤]، وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ [الأنعام: ٢٢-٢٤]، وقال تعالى:

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ [يونس: ٢٨-٣٠].

فالكل ينظر عن يمينه فلا يجد إلا عمله وينظر عن يساره فلا يجد إلا عمله وينظر بين يديه فلا يجد إلا عمله وينظر من ورائه فلا يجد إلا عمله، قال تعالى: ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ [الزمر: ٧٠]، وقال تعالى: ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [غافر: ١٧]، وقال تعالى: ﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ [ق: ٢١]، وقال تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ [المدثر: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ [البقرة: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا ۖ وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾ [الانفطار: ١٩]، وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا ۚ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ ﴾ [لقمان: ٣٣].

٣-الشهود:

«الله» أعظم شاهد لأنه العليم الخبير الذي لا تخفى عليه من أمور عباده خافية، قال تعالى: ﴿ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴾ [يونس: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ [الرعد: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ [الإسراء: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [العنكبوت: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الأحقاف: ٨]، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ [الحاقة: ١٨]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ

كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٧٩]، وقال تعالى: ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلاً ﴾ [النساء: ٨١]، وقال تعالى: ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾ [النساء: ٦]، وقال تعالى: ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴾ [النساء: ٧٠]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [يونس: ٦١].

الأنبياء عليهم السلام يشهدون على أممهم بالبلاغ وإقامة الحجة، قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ [المائدة: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ [النحل: ٨٩]، وقال تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٤١]، وقال تعالى: ﴿ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ [القصص: ٧٥]، وقال تعالى في حق المسيح عيسى بن مريم: ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ١٥٩].

الملائكة الذين سجلوا الأعمال على العباد وشهدوا المعاصي، قال تعالى: ﴿ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴾ [ق: ٢١-٢٦].

الأرض، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ [الانشقاق: ٣-٥].

أمة محمد شاهدة على سائر الأمم قال تعالى: ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ

﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨].

جوارح الإنسان عندما يجادل ويشكك فيما كتب الحفظة ولا يرضى إلا شاهدا من نفسه فعندها يُصم الله تعالى على فيه وتنطق بالحقائق جوارحه، قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٠-٢٢].

٣- **المداولة والحكم**: إنه الحكم العدل والوزن بالقسط كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

ثم القضاء والذي قال عنه تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ٨-٩]، وقال تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٢-١٠٣]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾ [القارعة: ٦-١١].

٤- بعض مشاهد تعذيب الكفرة من أصحاب الحضارات:

لقد أفرد الحق تبارك وتعالى آيات كثيرة في وصف النار وتفاصيل ما يدور فيها ومن ذلك

قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾ [ص: ٥٥-٦٩]، وقال تعالى: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [الزمر: ٧١-٧٢] وغيرها من الآيات.

٥- من مشاهد نعيم أهل الطاعة:

ولقد أفرد الحق تبارك وتعالى آيات كثيرة في وصف الجنة ونعيمها منها قوله تعالى: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ [الزخرف: ٦٧-٧٣]، وقال تعالى: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ [الزمر: ٧٣-٧٤].

وفي القرآن آيات تجمع ذكر النعيم والعذاب معا ليقارن اللبيب بين الصورتين، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ

يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴾ [محمد: ١٥]، وقال تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴾ [الرعد: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ [الحج: ١٩-٢٤].

والمقصود من هذه الأخبار تشويق الناس إلى الجنة ليعملوا بعمل أهلها وتحذيرهم من النار وما يقرب إليها من قول أو عمل وتحذيرهم من الوقوع في ذلك، ولقد كلف الله تعالى عباده الإيمان بذلك تفصيلا لأنه أصل من أصول الدين، وفي ذكره دلالة على صدق الرسول الذي أخبر عن هذا الغيب كله، وفيه دلالة على وقوع البعث لا محالة.

ثانيا: الأدلة والبراهين الحسية:

١- إخراج الحي من الميت:

مشاهدة الناس إخراج الحي من الميت -كما يحدث في الطيور وأمثالها كالزواحف والأسماك والسلاحف- حين يخرج المولود الحي المتحرك من البيضة الميتة التي لا حراك بها، وكذلك الحبوب الجامدة يخرج منها النبات الحي.

يقول سبحانه: ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ [الروم: ١٩]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٥]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ

﴿ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٣١].

والإنسان الحي العاقل المفكر الناطق كان ترابا ميتا لا حراك به، يقول سبحانه: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ [الروم: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ [فاطر: ١١]، وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [غافر: ٦٧].

والأرض الهامدة الميتة ينزل الله عليها الماء فتحيى بإذن الله بالنبات الأخضر النضر يقول عز شأنه: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾ [فاطر: ٩]. أي كذلك البعث بعد الموت.

ويقول سبحانه: ﴿ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ [النحل: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الحديد: ١٧]، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ [الحج: ٥]، وقال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [فصلت: ٣٩]. والخلاصة أن الذي أحيا الأرض بالنبات المخلوق من ترابها مرارا وتكرارا هو

وحده القادر على إخراج الإنسان المخلوق من ترابها مرة أخرى منها بل إعادة الخلق أهون عليه من ابتدائه.

٢- أطوار الإنسان:

والأطوار التي يمر بها الإنسان خير شاهد على البعث، فمن قدر على خلق النطفة من التراب وخلق العلقة من النطفة وخلق المضغة من العلقة وإكمال الجنين وبقائه في الرحم مدة الحمل ثم إخراجه طفلا ثم إكمال نموه ومداركه، ثم وفاة البعض وطول عمر البعض حتى يعود كالطفل في ضعف بدنه وفكره، فمن قدر على ذلك كله قدر على البعث بعد الموت؛ إذ إنه طور من الأطوار، يقول سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾ [الحج: ٥].

ويقول جل في علاه: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ۝٣٦ أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ ۝٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةٗ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٣٨ فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣٩ أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ [القيامة: ٣٦-٤٠].

ويقول سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤].

والسلالة: ما يستل أي يستخلص من الأغذية فيتكون منه الحيوان المنوي والبويضة، والسلالة -كذلك- الدودة الصغيرة، وهكذا الحيوان المنوي والبويضة. قال القرطبي: «ما استل من الطين، وقيل: صفوة الماء يعني المني، والسل استخراج الشيء من الشيء»[1].

---

(١) تفسير القرطبي (١٢/ ١١٠).

والنطفة هي الحيوان المنوي والبويضة عندما يلتحمان ويكونان خلية واحدة، قال القرطبي: «هو المني سمي نطفة لقلته، وهو القليل من الماء، وقد يقع على الكثير منه، ومنه الحديث: «**حتى يسير الراكب بين النطفتين لا يخشى جورا**» أراد بحر المشرق وبحر المغرب، والنطف: القطر، نطف ينطف وينطف وليلة نطوفة دائمة القطر»[١].

والقرار المكين هو الرحم، ووصف بذلك لأنه يتوسط بدن المرأة، ولأن بجدار الرحم شعيرات تغطي بدم العادة، وعندما تلتحم النطفة في قناة فالوب وتأخذ طريقها للارتشاف في الرحم يصير هذا الدم لزجا متماسكا كالطين، فتغرس النطفة فيه، ويصبح لها كالمساند والمتكآت فتظل في مأمن بإذن الله.

وسميت علقة لعلوقها بجدار الرحم، وقال القرطبي: «هو الدم الجامد والعلق الدم العبيط أي الطري وقيل: الشديد الحمرة»[٢]، ثم يخلقها الله مضغة، قطعه لحم بمقدار ما يمضغ؛ ولأنها تشبه تماما قطعة العلك عليها أثر الأضراس، ثم يخلقها الله عظما ويكسوه باللحم. ثم ينشئه الله خلقا آخر، أي يصير سامعا مبصرا متكلما، ثم وليدا ثم صبيا، ثم شاب، وهكذا.

وكذلك يبعث فيه روح الإنسان ويأخذ شكله الذي فضله الله به، فقد أثبت العلم الحديث أن أجنة الفقاريات[٣] من الإنسان والسمك والبقر والقرد والطير تتشابه في طورها الأول ثم تتمايز في مرحلتين ببعض الخصائص، ثم يأخذ كل صنف شكله في الطور الثالث.

ويتم هذا الخلق من طور إلي طور في ظلمة دامسة، لأنها ظلمة فوق ظلمة، ظلمة البطن وبداخله ظلمة الرحم وبداخله ظلمة المشيمة؛ ليتم تصويره حسب إرادة الله؛ لقوله سبحانه: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [الزمر: ٦]، فسبحان الخلاق العليم.

---

(١) تفسير القرطبي (١٢/ ٩).

(٢) المرجع السابق.

(٣) الفقاريات: كل ما له عمود فقري .

ثم إننا نموت بعد ذلك، وتصريف الأطوار دليل على كمال القدرة، والقادر على كل ذلك قادر على إعادة الخلق والبعث بل الإعادة أهون عليه، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم: ٢٧]. وفي هذا كله دلالة على قدرة الله الخالق لهذه الأطوار على إعادة الخلق بعد الموت.

٣- تعاقب حياة الإنسان بين النوم واليقظة:

ومن أوضح الدلائل الحسية على البعث هو ما يعتري الإنسان من نوم بالليل ويقظة بالنهار، فما أشبه النائم بالميت من حيث انعدام السمع والبصر والفكر وعدم الحركة، ولذا فإن النائم غير مؤاخذ حتى يستيقظ، وما أشبه الاستيقاظ بالبعث؛ لزوال حالة تعطل بعض الحواس، وحدوث الحركة بعد السكون.

يقول سبحانه: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الزمر: ٤٢].

وقد أكد الرسول ﷺ ذلك بقوله: «**والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون ولتحاسبن على ما تعملون**»(١)، وفي حديث أبي هريرة ﷺ قال: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِذَا أَوَى أَحَدُكُمْ إِلَى فِرَاشِهِ فَلْيَنْفُضْ فِرَاشَهُ بِدَاخِلَةِ إِزَارِهِ، فَإِنَّهُ لاَ يَدْرِى مَا خَلَفَهُ عَلَيْهِ، ثُمَّ يَقُولُ: بِاسْمِكَ رَبِّي وَضَعْتُ جَنْبِى، وَبِكَ أَرْفَعُهُ، إِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِى فَارْحَمْهَا، وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ الصَّالِحِينَ**»(٢).

---

(١) رواه البلاذري عن جعفر بن عبد الله بن أبي الحكم، كتاب سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، الباب السادس، (٢/ ٣٢٣)، الرحيق المختوم للمباركفوري، باب الدعوة في الأقربين (١/ ٥٩).

(٢) رواه البخاري في صحيحه كتاب الدعوات باب التعوذ والقراءة عند النوم رقم (٦٣٢٠) عن أبي هريرة ﷺ، مسلم باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع رقم (٢٧١٤)، ورواه أبو داود باب ما يقال عند النوم رقم (٥٠٥٢)، والنسائي والترمذي وغيرهم.

وكان ﷺ يقول بعد الاستيقاظ: «**الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور**»[١].

٤- ما جرى لبعض أصحاب الحضارات من الدلائل الحسية على البعث:

من الدلائل الحسية على البعث ما شاهده بعض أصحاب الحضارات من عودة الحياة إلى أناس بعد موتهم وسجله القران الكريم، ومن ذلك:

أ- أصحاب الكهف دليل على البعث:

من الدلائل الواضحة التي شاهدها بعض أصحاب الحضارات وجاءتنا بها الأخبار الصادقة ما حصل لأصحاب الكهف، وهم الفتية الذين فروا بدينهم من بطش الطاغية دقيانوس[٢] ولجئوا إلى الكهف فأنامهم الله ثلاثمائة سنة بالتوقيت الشمسي حسب تاريخ أهل الكتاب وثلاثمائة وتسع بالتوقيت القمري حسب تاريخ العرب، قال تعالى: ﴿ **وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا** ﴾ [الكهف: ٢٥].

لقد بدأ الله الحديث عن أصحاب الكهف مبينا أن أمرهم من بين آيات الله التي تجل عن الحصر ليس عجيبا إذا قورن بخلق السماوات والأرض أو خلق الكواكب وتسييرها قال سبحانه: ﴿ **أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا** ﴾ [الكهف: ٩].

وقد أجمل الله قصتهم في كتابه حيث قال لنبيه: اذكر أيها الرسول حين لجأ أولئك الفتية إلى الكهف فرارا بدينهم وهربا من أن يفتنهم عباد الأصنام، وطلبوا من الله أن يتداركهم برحمته، وأن ييسر لهم سبيل رضاه وطاعته، فأنامهم الله بالكهف نوما عميقا لا ينبههم فيه مختلف الأصوات سنين كثيرة، ثم أيقظهم من رقدتهم ليختبرهم ويختبر من وراءهم في المدة التي مكثوها في رقدتهم، فيتبين للجميع أن المحيط بعلم ذلك هو الله وحده، فيزدادوا يقينا بكمال قدرته وواسع علمه، قال سبحانه: ﴿ **إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ**

---

(١) رواه البخاري من حديث حذيفة رقم (٦٣١٢) كتاب الدعوات باب ما يقوله إذا نام، ومسلم باب ما يقوله عند النوم وأخذ المضجع رقم (٢٧١١) كتاب الذكر والدعاء والتوبة،وأبي داود رقم (٥٠٥١) كتاب الأدب، والترمذي رقم (٣٧٤٥) كتاب الدعوات وغيرهم.

(٢) تفسير القرطبي (١٠/ ٣١٢).

﴿رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠].

ثم فصل الله قصتهم فيما تلا ذلك من آيات وبسط القول عن نبئهم بالصدق المطابق للواقع والذي لا مرية فيه، فهم مجموعة من الفتيان آمنوا بالله، وثبتهم الله على اليقين، ووفقهم لطاعته، وقوى قلوبهم بالصبر على هجر الأهل والوطن، واستطاعوا أن يقولوا في شجاعة ودون مبالاة حين وقفوا بين يدي الجبار دقيانوس ليعاتبهم على ترك عبادة الأصنام قالوا: إن ربنا هو خالق السماوات والأرض، فلا إله غيره، ولن نعبد سواه، وألا نكون قد بعدنا عن الحق وتجاوزنا الصواب، ثم إنهم تعجبوا من فعل قومهم إذ أشركوا مع الله غيره، وقالوا: هلا أتى هؤلاء بحجة واضحة على صدق ما يدعون، كما أتينا نحن بالحجة الباهرة والدليل القاطع، لقد تجاوزوا الحد في الظلم حين افتروا على الله الكذب ونسبوا إليه الشريك، قال تعالى: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الكهف: ١٣-١٥].

ثم إن الملك توعدهم وأمهلهم إن لم يعودوا إلى عبادة آلهة القوم، فقرروا أن يفروا بدينهم، وقالوا: ما دمنا قد اعتزلنا قومنا وما يعبدون من دون الله فلنلجأ إلى الكهف حيث نتمكن من إخلاص العبادة لله، وإنا لنرجوه سبحانه أن يسهل لنا أمر الفرار بديننا، وأن يوفقنا لحسن عبادته، ويهيئ لنا سبيل الرشاد، قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ [الكهف: ١٦].

ومن كمال عناية الله بهم أن كان باب الكهف إلى الشمال بحيث تميل الشمس عنهم وقت طلوعها جهة اليمين، وإذا هبطت للغروب تقطعهم وتعدل عنهم إلى جهة الشمال، فشعاعها يقع على جانبي الكهف، فيصلح بحرارته جوه، ولا يقع عليهم فيحرقهم، وهم في متسع من الكهف يصلهم الهواء من كل جانب.

وقد شاء سبحانه أن تبقي أعينهم مفتوحة فكأنهم في يقظة -مع أنهم في نوم عميق- وذلك

لئلا تتلف أعينهم وليرهبوا من يراهم.

كما شاء تعالى -كذلك- أن يقلبوا ذات اليمين وذات الشمال، حتى لا تبلى أجسادهم، وكان كلبهم باسطا ذراعيه بباب الكهف أو فنائه كأنه يحرسهم، وقد طالت أظفارهم وأشعارهم حتى أصبحوا في صورة مرعبة لا يجرؤ أحد على الاقتراب منهم إلى أن يقضي الله أمرا كان مفعولا، قال تعالى: ﴿ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾ [الكهف: ١٧]، فمكثوا على هذا الحال ثلاثمائة عام ميلادية أي: ثلاثمائة وتسعا هجرية، ثم أذن الله بانكشاف ليكونوا عبرة وآية للناس إلي قيام الساعة وذلك حين خرج منهم من يشتري لهم طعاما بما معهم من ورق ونقود فاكتشف أمرهم.

ب- من خرجوا من ديارهم حذر الموت فأماتهم الله ثم أحياهم:

وقد ذكر الله خبرهم في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

يرى جمهور المفسرين أن هذه الآية الكريمة تحكي قصة جماعة من بني إسرائيل كانوا بقرية يقال لها «داور دان»[1] أمرهم الله على لسان حزقيل النبي عليه السلام بالجهاد فخافوا الموت بالقتل، فخرجوا من ديارهم فرارا من ذلك، وقيل: خرجوا فرارا من وباء الطاعون، قاله ابن عباس ورجحه القرطبي.

وكلمة ألوف: جمع ألف، وعلى هذا فقد كانوا أكثر من عشرة آلاف، لأن جمع الكثرة لا يقال لعشرة فما دونها، وقال ابن زيد: إن ﴿ أُلُوفٌ ﴾ جمع ألف مثل جالس وجلوس، وعلى هذا فالمعنى: خرجوا مؤتلفين: أي لم تخرجهم فرقة قومهم، ولا فتنة بينهم.

---

(١) تفسير القرطبي (٣/ ٢١٨).

ومهما يكن من أمر، فقد خرج هؤلاء القوم من ديارهم فرارا من الموت، وتركوا أوطانهم حرصا على الحياة، فأراد سبحانه أن يبين لهم ولمن خلف من بعدهم أن الإنسان لا يملك لنفسه موتا ولا حياة، وأن الإماتة والإحياء بيده وحده فلا معني لخوف خائف ولا لفرار فار، وقد بين سبحانه ذلك أوضح بيان حيث يقول: ﴿ لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِيَ ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

أي لابد للمرء أن يموت كما كتب عليه الله وفي المكان المحدد له كما قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجمعة: ٨].

فأماتهم الله، ويستوي في ذلك أن تكون المدة ثمانية أيام أو سبعة أو أقل أو أكثر، والذي يعني كل باحث أنه سبحانه سلبهم حياتهم عقوبة لهم على فرارهم، ثم منحهم إياها.

وقال ابن العربي[١]: أماتهم الله مدة عقوبة لهم ثم أحياهم، وميتة العقوبة بعدها حياة، وميتة الأجل لا حياة بعدها إلى يوم القيامة، ولما أحياهم الله عادوا إلى قومهم يعرف الجميع أنهم كانوا موتي وعاشوا حتى ماتوا لآجالهم التي كتبت لهم.

وإن الله سبحانه لهو صاحب الفضل على الناس فيما وهبهم من حياة ورزق، ولكن أكثرهم لا يشكرونه على ما أغدق عليهم من النعم وأسبغ من الفضل.

نقل ابن كثير[٢] عن عطاء أنه قال في هذه الآية: إنها مثل في تكوينه تعالى أمة قوية تقهر وتغلب وتسوس غيرها بعد بلوغها غاية الضعف والخمول، فكأن حياتها وموتها تمثيلا لحالتيها قبل وبعد، فيكون إشعارا بما ستصير إليه أمة العرب من القوة العظيمة، والمدنية الفخيمة، وتنبيها على أن الوصول إلى ذلك إنما يكون بجهاد الظالمين، واتفاق المتقين على دحر الباغين.

---

(١) تفسير القرطبي (٣/ ٢١٨)، ابن العربي: القاضي أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن العربي المعافري المالكي إمام من أئمة المالكية، فقيه محدث مفسر أصولي أديب متكلم، ولد بأشبيليا (٤٦٨- ت ٥٤٣هـ).

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٤٠٠).

ولا معنى لأن يحمل الخبر هذا المحمل، فإن بعض ألفاظ الآية لا يحتمله، فما معني «خرجوا من ديارهم وهم ألوف»؟ وأيضا فإن فضل الله على الناس بالحياة أولى وأجدر بالشكر من أن يكون الفضل تكوين أمة قوية قاهرة، وذكر كلمة الناس أعم وأشمل من أن يراد بها العرب وحدهم، وأية غرابة في أن يكون ذلك حقيقة؟ أتراها في موت أناس ثم إحيائهم؟ ألم يحدث ذلك للذين ذهبوا من بني إسرائيل مع موسى عليه السلام للتوبة من ذنب العجل، وطلبوا رؤية الله جهرة، فأماتهم الله ثم بعثهم؟

وقد قال الرازي[1]: «إن الآية دالة على أنه تعالى أحياهم بعد أن ماتوا فوجب القطع به، وذلك لأنه في نفسه جائز، والصادق أخبر بوقوعه فوجب القطع بوقوعه، أما الإمكان فلأن تركيب الأجزاء على الشكل المخصوص ممكن، ومتى ثبت ذلك فقد ثبت الإمكان، وأما أن الصادق قد أخبر عنه ففي هذه الآية، ومتى أخبر الصادق عن وقوع ما ثبت في العقل إمكان وقوعه وجب القطع به».

ت- من صعقهم الله ثم أحياهم:

وقد ذكر الله خبرهم في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة: ٥٥-٥٦].

لقد عبد بنو إسرائيل العجل الذي أتاهم به السامري في أثناء غيبة موسى عليه السلام للمناجاة، وأراد عليه السلام -بعد عودته من المناجاة وبعد لومه بني إسرائيل على ما فعلوا وحرقه العجل- أن يصطحب معه مجموعة من خيارهم للمناجاة ليستغفروا الله من ذنب عبادة العجل، فاختار عليه السلام سبعين رجلا منهم، صحبهم معه إلى جانب الطور الأيمن حيث يكلم الله؛ ليقدم ويقدموا توبتهم عسى الله أن يشملهم برحمته ويعفو عما كان منهم من كفر وضلال، يقول سبحانه: ﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا

(١) تفسير الرازي (٣/ ٣٩٦).

فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

وناجى موسى ربه وابتهل إليه يسأله الرحمة ويطلب منه العفو وهم قريب منه ينصتون إلى تضرعه، وإذا بهذه الصفوة المختارة تقول لموسى: لن نؤمن لك ولن نصدق ما جئتنا به حتى نرى الله عيانا، فصعقهم الله بالصعقة وهم ينظرون، أي يرون أنهم يموتون، فلم يموتوا كلهم دفعة واحدة حتى لا يتأتى منهم إنكار لو صعقوا جملة، فجعل موسى يتضرع لربه أن يعفو عنهم وأن يحييهم فلو شئت سبحانك لأهلكتهم بسبب عبادة العجل وأهلكتني معهم، يقول سبحانه: ﴿ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

واستجاب الله دعاءه وبعثهم من موتهم لعلهم يشكرون ربهم على هذه النعمة ويخلصوا الإيمان لله.

ث- قتيل بني إسرائيل وقصة البقرة:

فقد كان في بني إسرائيل رجل ثري ذو مال وافر، ولم يكن له وارث إلا ابن أخيه، فاستبطأ الفتي أجل عمه فطوعت له نفسه أن يقتله وينعم بالمال. فاحتال عليه حتى أتي به قريبا من إحدى القرى وقتله ثم عاد إلى محلته، وفي الصباح طالب أهل هذه القرية بدمه فقالوا: لم نقتله ولا علم لنا بقاتله. والتف حول الفتى أنصاره ليشدوا أزره للمطالبة بدم عمه، وتنازع الفريقان حتى كادوا يقتتلون.

ثم رأى ذوو الحجا منهم أن يحتكموا إلى موسى عليه السلام، كما وصف الله ذلك فقال: ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٔتُمْ فِيهَا وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ [البقرة: ٧٢].

فلما جاء سيدنا موسى وطلبوا منه أن يسأل ربه عن القاتل كان أمر الله تعالى لهم أن يذبحوا بقرة ويضربوا الميت بجزء منها فيحيي بأمر ربه ويخبر عمن قتله. فلما قال لهم سيدنا موسى ذلك قالوا له: أتهزأ بنا يا موسى؟

فقال: معاذ الله أن أكون من أهل الجهل فأهزأ بعباده أو أسخر بأمر الرسالة كما حكي تعالى عنهم فقال: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [البقرة: ٦٧].

ولو أن بني إسرائيل ذبحوا أي بقرة لأجزأتهم، ولكن كيف يمتثلون وهو لجاجة؟!

لقد قالوا: نريد يا موسى أن نعرف أصغيرة هذه البقرة أم كبيرة؟ فسأل ربه فقال: لا كبيرة ولا صغيرة، وإنما وسط بين هذا وذاك فامتثلوا لأمر الله: ﴿ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ ۖ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴾ [البقرة: ٦٨].

فقالوا: يا موسى إن البقر المتوسط كثير ونريد أن نعرف لونها فسل ربك عنها.

فقال لهم: إنه يقول: إنها صفراء شديدة الصفرة، يسر منظرها من يراها قال تعالى: ﴿ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴾ [البقرة: ٦٩].

وعاد بنو إسرائيل، لأنهم جبلوا على المماطلة وعدم الامتثال، وعادوا يسألون موسى: ادع لنا ربك يبين لنا: أهي ذلول تحرث وتسقي أم سائمة لتسمن وتذبح فإن البقر تشابه علينا لكثرته، وإن شاء الله إذا بينتها لنا سنهتدي إليها.

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «**لولا أن بني إسرائيل قالوا: ﴿ وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾** [البقرة: ٧٠] **ما أعطوا أبدا**». فقال لهم سيدنا موسى: إن الله يقول: إنها بقرة غير مذللة لحرث أو سقي، سليمة من العيوب، وليست بها أي علامة من بياض أو سواد، فقالوا له: الآن وضحت أمامنا صفاتها. وقد قال عن ذلك تعالى: ﴿ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا ۖ وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ ۖ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ [البقرة: ٧٠-٧١].

أخذ بنو إسرائيل يبحثون عن هذه البقرة، وجدّوا في طلبها حتى وجدوها عند فتى كان أشد ما يكون الولد برا بوالديه، وكان أبوه رجلا صالحا، وذات يوم قالت له أمه: يا بني إن والدك في أخريات حياته كان قد ترك في المكان الفلاني عِجله وطلب من ربه أن يحفظها لك لتكون لك فاذهب إلى هذا المكان وأحضرها لتبيعها وتنتفع بثمنها، فذهب وأحضرها وكانت هي التي وصفها الله لبني إسرائيل، فلم تنطبق هذه الصفات إلا عليها، فاشتراها بنو إسرائيل بأغلى ثمن -ولعل الله بذلك يريد مكافأة الوالد وولده- ثم ذبحوها، كما قال تعالى: ﴿ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ [البقرة: ٧٠].

قال الضحاك عن ابن عباس: كادوا ألا يفعلوا، ولم يكن ذلك الذي أرادوا، لأنهم أرادوا ألا يذبحوها يعني أنهم مع هذا البيان وهذه الأسئلة والأجوبة والإيضاح ما ذبحوها إلا بعد الجهد، وفي هذا ذم لهم فلم يكن لهم من غرض إلا التعنت.

ثم ضربوا الميت، ضربه سيدنا موسى أو أحد بأمره بجزء منها، فأعادت إليه الحياة بقدرة الله، وأعلن اسم قاتله وعاد ميتا، فعوقب القاتل بالقتل وحرم من الميراث، وبهذه القدرة يحيي الله الموتى يوم القيامة، فإن من يقدر على إحياء نفس قادر على إحياء الأنفس كلها، كما قال سبحانه: ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [لقمان: ٢٨]، وفي هذا يقول تعالى: ﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٧٣].

ج- **من أماته الله مائة عام ثم بعثه، وهو عزير:**

كان عزير ﷺ من صالحي بني إسرائيل، ومن القلة التي كانت تحفظ التوراة وتؤمن بالله، وساءه ما كان من فساد قومه حتى سلط الله عليهم بختنصر ملك بابل، فجعل بيت المقدس أثرا بعد عين، واقتادهم أسرى إلي بابل، وكان عزير ممن شرد.

ثم عاد يوما إلى بيت المقدس بعد خرابها فمر عليها راكبا حماره مصطحبا معه طعامه وشرابه من العصير، ونال الكلال منه فنزل ليستريح، وأوى إلي مكان مستور وأسند ظهره إلى الجدار، وأطال النظر فيما حوله وأغرق في التفكير، كيف يعيد الله الحياة إلى هذه القرية وأهلها

بعد أن صارت تلالا من التراب، وسار أهلها عظاما نخرة، وأراد الله سبحانه أن يريه ويري الناس جميعا في حادثة ملموسة أن قدرة الله فوق مسألة إحياء الموتى، وإعادة الحياة إلى هذه القرية بعد موتها، فأماته الله مائة عام كما أمات حماره وأبقي طعامه وشرابه بجواره وفي هذا يقول تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

وفي أثناء موته أطلق «كورش» ملك فارس سراح بني إسرائيل فعادوا إلى بيت المقدس، وساعدهم على عمارتها حتى سارت أحسن من ذي قبل، بعد أن ظلت خرابا ما يقرب من سبعين سنة، وانقضى على موت عزير مائة عام، ثم أعاد الله إليه الحياة كهيئته يوم موته، وأرسل إليه ملك يسأله: كم أمضيت في رقادك هذا يا عزير؟ فقال: يوما، ثم التفت فرأى الشمس لم تغرب بعد فقال: أو بعض يوم.

فقال له: بل لبثت مائة عام فانظر إلى قدرة الله كيف أحياك، وهذا طعامك وشرابك لم يتغير شيء منه رغم مرور هذه المدة الطويلة، وهذا حمارك قد نخرت عظامه وتفتت أوصاله، لتتبين ما قلت لك من طول المدة، ولتعتبر في نفسك، ولتكون عظة وعبرة لقومك وللناس جميعا حتى يؤمنوا بقدرة الله على البعث، ثم انظر إلى عظام حمارك النخرة المتناثرة، وكيف تجمع وتركب وتكسى باللحم، وتبعث فيها الحياة وتشاهد بعينك، كيف قدرنا على إحياء غيرك كما أحييناك من قبل. فلما رأى عزير هذا كله قال: أوقن أن الله على كل شيء قدير.

ح- من أحياهم الله على يد عيسى عليه السلام:

كان من معجزات نبي الله عيسى عليه السلام أن يحيي الموتى وأن يخرجهم من قبورهم بعد موتهم بإذن الله، فقد ذكر القرطبي[1] أنه نادي بنتا من قبرها ودعا الله أن يحييها فخرجت

(١) تفسير القرطبي (٤/ ٩٤).

من القبر تنفض عن كتفها التراب. وجاء في تفسير البغوي[١]: أخرج محيي السنة عن ابن عباس أنه قال: أحيا عليه السلام أربعة أنفس: عاذر وابن العجوز، وابنة العاشر، وسام بن نوح عليه السلام، فأما عازر فكان صديقا له فأرسلت أخته إلى عيسى عليه السلام أن أخاك عازر مات، فأتاه هو وأصحابه فوجدوه قد مات منذ ثلاثة أيام، فقال لأخته: انطلقي بنا إلى قبره فانطلقت معه إلى قبره، فدعا الله تعالى عيسى فقام عازر وودكه[٢] يقطر فخرج من قبره وبقي زمانا وولد له. وأما ابن العجوز فمُر به ميتا على عيسى عليه السلام، محمولا على سرير، فدعا الله تعالى عيسى عليه السلام فجلس حيًا على سريره ونزل عن أعناق الرجال ولبس ثيابه وحمل السرير ورجع إلى أهله فبقي زمانا وولد له.

وأما سام بن نوح، فإن عيسى عليه السلام جاء إلى قبره فدعا باسم الله تعالى الأعظم فخرج من قبره. وفي بعض الآثار أن إحياءه ساما كان بعد قولهم له -عليه السلام-: إنك تحيي من كان قريب العهد من الموت ولعلهم لم يموتوا، بل أصابتهم سكتة، فأحيي لنا سام ابن نوح، وكان بينه وبين موته أربعة آلاف سنة فقام فقال للقوم: صدقوه فإنه نبي، ثم مات كما كان.

وقد ورد أنه عليه السلام أحيا ابن ملك، وأحيا خشفا[٣] وشاة وبقرة.

وعن هذا يقول سبحانه: ﴿وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡۖ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٤٩]، وكان هذا حريا أن يجعل جميع بني إسرائيل يؤمنون برسالته ويصدقوه فيما جاء به، ولكن فريقا منهم لكفرهم وعنادهم قالوا: هذا سحر واضح، وفي هذا يقول تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ

(١) تفسير البغوي (١/ ٣٩)، محيي السنة أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (ت: ٥١٦هـ).

(٢) الودك الصليب أو الصديد الذي يسيل من الميت.

(٣) خشفا: ولد الظبي.

وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [المائدة: ١١٠].

خ- رؤية إبراهيم عليه السلام إحياء الموتى:

لما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

وقال ابن كثير[١] في تفسيره: ذكروا لسؤال إبراهيم عليه السلام أسبابا، منها: أنه لما قال للنمرود: ﴿ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، أحب أن يترقى من علم اليقين إلى عين اليقين وأن يري ذلك مشاهدة. وأن سؤال إبراهيم عليه السلام يدل على إيمانه العميق بقدرة الله على الإحياء، لأنه يسأل عن الكيفية، كمن قال لمن زاره: كيف وصلت إلي، فهو لا يشك في وصوله، وإنما يسأل عن الكيفية، وإنما وجه الله إليه هذا السؤال: ﴿ أَوَلَمْ تُؤْمِن ﴾ مع كامل علمه سبحانه بحاله، ليجيب عليه السلام هذا الجواب: ﴿ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾ أي ليسكن عن الجولان في كيفياتها المحتملة.

وقد أكد المصطفى ﷺ ذلك، حيث قال: «**نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال: أرني كيف تحيي الموتى**»[٢].

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٢١٥).

(٢) رواه البخاري من حديث أبي هريرة في التفسير باب «وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى» رقم (٤٥٣٧)، ورواه مسلم في الفضائل باب من فضائل إبراهيم الخليل عليه السلام رقم (١٥١) وفي الإيمان رقم (٣٩٩)، ورواه ابن ماجه في الفتن رقم (٤١٦٢) ورواه احمد في مسنده رقم (٨٥٥١).

أي إننا لم نشك، فإبراهيم أولى بأن لا يشك.

وفي توجيه السؤال لإبراهيم -كذلك- وإجابته دفع توهم أن يكون سؤال إبراهيم للتعجيز، كقولك لمعاند: أرني كيف تحمل الجمل؟

لقد أخذ إبراهيم -عليه السلام- أربعة من الطير بحسب أمر الله فصرهن إليه أي جمعهن فذبحهن ونتف ريشهن وقطعهن وخلط أجزاءهن بعضها إلى بعض ثم جعل على كل جبل من الجبال التي كانت بحياله جزءا ثم دعاهن بإذن الله فاجتمع ريش كل طائر ودمه وأجزاء لحمه، حتى قام كل طائر على حدة وأتينه يمشين سعيا، ليكون ذلك أبلغ في الرؤيا التي طلبها، ولئلا يقول قائل -لو أتته طائرة- لعلها غيرها وتصادف وجودها.

فهذا خير شاهد على حدوث البعث يوم القيامة.

د- إحياء الحوت لنبي الله موسى عليه السلام:

لقد أحيا الله تعالى الحوت بعد أن ملح وأعد لطعام نبي الله موسى عليه السلام وفتاه يوشع بن نون. روى الإمام البغوي بسنده عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: إن نوفا البكالي يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس هو موسى بني إسرائيل. فقال ابن عباس: كذب عدو الله؛ حدثنا أبي بن كعب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**إن موسى قام خطيبا في بني إسرائيل فسئل أي الناس أعلم؟ فقال: أنا. فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه فأوحى الله إليه أن لي عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منك**[1]. **قال موسى: يا رب فكيف لي به؟ قال: تأخذ معك حوتا فتجعله في مكتل فحيث ما فقدت الحوت فهو ثم. فأخذ حوتا فجعله في مكتل ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رءوسهما فناما واضطرب الحوت في المكتل فخرج منه فسقط في البحر فاتخذ سبيله في البحر سربا وأمسك الله تعالى عن الحوت جرية**

---

(١) رواه البخاري من حديث أبي بن كعب في كتاب العلم باب «وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين» رقم (١٢٢، ٧٤)، وحديث الأنبياء رقم (٤٧٠٠) وغيرهما، ورواه مسلم في الفضائل رقم (٢٣٨٠) وغيره، والترمذي في التفسير رقم (٣٤٤٢)، ورواه احمد في مسنده رقم (٢١٧٠٦)، ومسند الحميدى رقم (٣٩٦).

الماء فصار عليه مثل الطاق، فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت فانطلقا بقية يومهما وليلتهما حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه: آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا. قال: ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذي أمر به وقال له فتاه: أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجبا قال: فكان للحوت سربا ولموسى ولفتاه عجبا. وقال موسى: ذلك ما كنا نبغ. قال: رجعا يقصان آثارهما حتى انتهيا إلى الصخرة فإذا رجل مسجي بثوب فسلم عليه موسى فقال الخضر عليه السلام: وأنى بأرضك السلام؟ فقال: أنا موسى. قال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم أتيتك لتعلمني مما علمت رشدا. قال: إنك لن تستطيع معي صبرا يا موسى، إني على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علم من علم الله علمك الله لا أعلمه. فقال موسى: ستجدني إن شاء الله صابرا ولا أعصي لك أمرا. فقال له الخضر: فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا. فانطلقا يمشيان على ساحل البحر فمرت سفينة فكلموهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نول، فلما ركبا في السفينة لم يضح إلا والخضر قد قلع لوحا من ألواح السفينة بالقدوم فقال له موسى: قد حملونا بغير نول عمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا إمرا. قال: ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا؟ قال: لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرا». قال: وقال رسول الله ﷺ: «كانت الأولى من موسى نسيانا والوسطى شرطا والثالثة عمدا. قال: وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة فقال له الخضر: ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر. ثم خرجا من السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلاما يلعب مع الغلمان فأخذ الخضر برأسه فاقتلعه بيده فقتله فقال له موسى: أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا. قال: ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا؟ قال: وهذه أشد من الأولى قال: إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذرا. فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه قال: كان مائلا فقال الخضر بيده فأقامه فقال موسى: قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا لو شئت لاتخذت عليه أجرا. قال: هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا». فقال رسول الله ﷺ: «وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص علينا من خبرهما». قال سعيد بن جبير: فكان ابن عباس يقرأ:

(وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصبا)، وكان يقرأ: (وأما الغلام فكان كافرا وكان أبواه مؤمنين).

وعن سعيد بن جبير في رواية أخرى عن ابن عباس عن أبي بن كعب قال رسول الله ﷺ: «**قام موسى رسول الله فذكر الناس يوما حتى إذا فاضت العيون ورقت القلوب ولى فأدركه رجل فقال: أي رسول الله هل في الأرض أحد أعلم منك؟ قال: لا. فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إلى الله. قيل: بلى عبدنا الخضر. قال: أي رب وأين؟ قال: بمجمع البحرين. قال: رب اجعل لي علما أعلم بك منه. قال: خذ حوتا ميتا حيث ينفخ فيه الروح**». وفي رواية قيل له: «**تزود حوتا مالحا فإنه حيث تفقد الحوت، فأخذ حوتا فجعله في مكتل**»[1].

فهذا حوت ميت ومملح. وذكر القرطبي وغيره أنه أكل شقه وأذن الله تعالى بإحيائه فعادت له الحياة مرة ثانية وخرج من المكتل وعاد إلى البحر يشق طريقه فيهن وأمسك الله على الحوت جرية البحر فصار مثل الطاق كأن أثره في حجر، وكان ذلك علامة وجود الخضر عليه السلام، وكان نبي الله موسي نائما لحظة شق الحوت طريقه في البحر، واستحيا فتاه أن يوقظه، فلما استيقظ نسي الغلام أن يذكر له ما رأي من أمر الحوت حتى إذا نأى بهم المكان واحتاج نبي الله موسي للطعام فطلب الحوت فعندها تذكر الفتى فذكر له ما كان من أمره فقال: ذلك ما كنا نبغي، فعادا يتتبعان آثارهما حتى وصلا إلى مكان الحوت وعندها التقيا مع الخضر عليه السلام. والخلاصة: أن الذي أحيا الحوت الميت هو الذي يحيي الموتى.

٥- الحوار في الإيمان بالملائكة:

الملائكة هم أكرم خلق الله في عالم الغيب، فمنهم حملة عرشه تعالى كما وصفهم بقوله تعالى: ﴿ **ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ** ﴾ [غافر: ٧].

ومنهم أمناء وحيه كما قال تعالى عنهم: ﴿ **إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى**

(١) تفسير القرطبي (١١/ ١١).

﴿ ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ [التكوير: ١٩-٢١].

ومنهم سفراء أمره وحملة وحيه إلى أنبيائه كما قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [الحج: ٧٥]، وقال تعالى: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾ [النحل: ٢]، وقال تعالى: ﴿ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴾ [عبس: ١٥-١٦].

ومنهم الحفظة كما قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ [الأنعام: ٦١]، وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴾ [الانفطار: ١٠].

ومنهم الكتبة لأقوال العباد وأفعالهم كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢]، وقال تعالى: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق: ١٨].

ومنهم نصراء أهل الحق ومثبتوهم ومبشروهم في الحياة وعند الممات، قال تعالى: ﴿ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ [الأنفال: ١٢]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٣٠ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾ [فصلت: ٣٠-٣١]. ومنهم المكلفون بإهانة الكفار وتعذيبهم عند الموت: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴾ [محمد: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ [الأنفال: ٥٠].

ومنهم القبضة المكلفون بقبض روح كل من جاء أجله، قال تعالى: ﴿ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ [السجدة: ١١]، وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى

يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الأنعام: ١٩٣]، وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ [الأنعام: ٦١].

وهم أهل تجرد تام لعبادة الله وطاعته من غير عصيان ولا سأم ولا فتور كما قال تعالى عنهم: ﴿ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴾ [فصلت: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٩-٢٠].

ويستوي في ذلك أشدهم وأجلهم ومن دونهم، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم: ٦]، وقال تعالى: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ [النساء: ١٧٢].

والخلاصة أن الملائكة ذوات حقيقية، متشخصة الأعيان للعيان، وصفهم من خلقهم من نور بأمور منها:

أولا: بكل صفات الذوات المتشخصة المتميزة مثل: الجسمية؛ قال تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [فاطر: ١]، والصعود ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [المعارج: ٤]، والنزول؛ قال تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٤]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى

﴿ وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٩٧]، والتجسد في صورة البشر، قال تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ [مريم: ١٧]، وغيرها.

ثانيا: بكل صفات الذوات العاقلة المكلفة، مثل: العبادة، والتسبيح، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٦]، وقال تعالى: ﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٩]، والكلام، وفهم الأمر والخطاب، ورد الجواب، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ [الحجر: ٢٨-٣٠]، وقال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ [ص: ٧١-٧٣].

وتنفيذ التكاليف المادية والمعنوية ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٨].

١. الحوار في وصفهم بالإناث:

لقد حاور القرآن الكريم أهل الجاهلية فيما نسبوه إلى الملائكة من أنهم بنات الله، أو أنهم شركاؤه أو أن لهم تصرفًا ذاتيًا في تدبير شيء من الكون، ورد القرآن عليهم، كما في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف: ١٩]، وقوله تعالى: ﴿ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [الصافات: ١٥٠-١٥٢]، وقوله تعالى: ﴿ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾

[الإسراء: ٤٠]، وقوله تعالى: ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴾ [النساء: ١١٧].

١ - الحوار في بيان مدى قوتهم أو ضعفهم:

لقد ظن أهل الجاهلية -وهم أصحاب حضارة- ضعف الملائكة، وقدرتهم على مصارعتهم والفرار من تعذيبهم لهم يوم القيامة، بل والهرب منهم ودخول الجنة بحول المشركين وقوتهم، وبدا ذلك لما نزل قول الله تعالى: ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ [المدثر: ٣٠]، فادعى الحارث بن كلدة أن بوسعه أن يواجه من الملائكة سبعة عشر وعلى قريش مواجهة الباقي، ودعا أجهلهم عمرو بن هشام قومه لمواجهتهم.

قال الإمام الطبري عند تفسيره لهذه الآية:

(وقوله: ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ يقول تعالى ذكره: على سقر تسعة عشر من الخزنة، وذكر أن ذلك لما أنزل على رسول الله ﷺ قال أبو جهل: حدثني به محمد بن سعد قال: ثني أبي قال: ثني عمي قال: ثني أبي عن أبيه عن ابن عباس: ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا ﴾ [المدثر: ٣١] فلما سمع أبو جهل بذلك قال لقريش: ثكلتكم أمهاتكم، أسمع ابن أبي كبشة[1] يخبركم أن خزنة النار تسعة عشر وأنتم الدهم[2] أفيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل من خزنة جهنم؟ فأوحى إلى رسول الله ﷺ أن يأتي أبا جهل فيأخذ بيده في بطحاء مكة فيقول له: ﴿ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴾ [القيامة: ٣٤-٣٥]، فلما فعل ذلك به رسول الله ﷺ قال أبو جهل: والله لا تفعل أنت وربك شيئًا، فأخزاه الله يوم بدر.

حدثنا بشر قال: ثنا يزيد قال: ثنا سعيد عن قتادة: ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ ذكر لنا أن أبا جهل حين أنزلت هذه الآية قال: يا معشر قريش، ما يستطيع كل عشرة منكم أن يغلبوا واحدًا من

---

(١) شبهوا رسول الله ﷺ بابن أبي كبشة، وأبو كبشة رجل من خزاعة ترك عبادة الأوثان، أو هي كنية وهب بن عبد مناف جده من قِبَل أمه، أو كنية زوج حليمة السعدية مرضعته. القرطبي (١٠/ ٢٣٤).

(٢) أنتم الدهم: أي العدد والشجعان. القرطبي (١٩/ ٨٠).

خزنة النار وأنتم الدهم؟ فصاحبكم يحدثكم أن عليها تسعة عشر.

حدثنا ابن عبد الأعلى قال: ثنا ابن ثور عن معمر عن قتادة قال: قال أبو جهل: يخبركم محمد أن خزنة النار تسعة عشر وأنتم الدهم، ليجتمع كل عشرة على واحد.

حدثني يونس قال: أخبرنا ابن وهب: قال ابن زيد في قوله: ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ قال: خزنتها[1].

قال الإمام القرطبي في تفسير هذه الآية: قلت: والصحيح -إن شاء الله- أن هؤلاء التسعة عشر هم الرؤساء والنقباء، وأما جملتهم فالعبارة تعجز عنها كما قال الله تعالى: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١].

وقد ثبت في الصحيح عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «**يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها**».

وقال ابن عباس وقتادة والضحاك: لما نزل ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ قال أبو جهل لقريش: ثكلتكم أمهاتكم! أسمع ابن أبي كبشة يخبركم أن خزنة جهنم تسعة عشر وأنتم الدهم -أي: العدد والشجعان- فيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا بواحد منهم! قال السدي: فقال أبو الأشد أسيد بن كلدة الجمحي: لا يهولنكم التسعة عشر أنا أدفع بمنكبي الأيمن عشرة من الملائكة، وبمنكبي الأيسر التسعة ثم تمرون إلى الجنة. يقولها مستهزئًا.

وفي رواية: إن الحارث بن كلدة قال: أنا أكفيكم سبعة عشر واكفوني أنتم اثنين. وقيل: إن أبا جهل قال: أفيعجز كل مائة منكم أن يبطشوا بواحد منهم ثم تخرجون من النار؟)[2].

قال الإمام الشوكاني في كتابه فتح القدير[3]:

(لما نزل قوله سبحانه: ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ قال أبو جهل: أما لمحمد من الأعوان إلا

---

(١) تفسير الطبري (١٢/ ٣١٢).

(٢) تفسير الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٩/ ٧٢).

(٣) تفسير فتح القدير (٧/ ٣٥٤).

تسعة عشر، يخوفكم محمد بتسعة عشر وأنتم الدهم، أفيعجز كل مائة رجل منكم أن يبطشوا بواحد منهم ثم يخرجون من النار؟ فقال أبو الأشد -وهو رجل من بني جمح-: يا معشر قريش، إذا كان يوم القيامة فأنا أمشي بين أيديكم فأدفع عشرة بمنكبي الأيمن، وتسعة بمنكبي الأيسر، ونمضي ندخل الجنة، فأنزل الله قوله: ﴿ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ﴾ [المدثر: ٣١] يعني: ما جعلنا المدبرين لأمر النار القائمين بعذاب من فيها إلا ملائكة فمن يطيق الملائكة ومن يغلبهم؟! فكيف تتعاطون أيها الكفار مغالبتهم؟!

وقيل: جعلهم ملائكة لأنهم خلاف جنس المخلوقين من الجن والإنس فلا يأخذهم ما يأخذ المجالس من الرقة والرأفة، وقيل: لأنهم أقوم خلق الله بحقه والغضب له وأشدهم بأسًا وأقواهم بطشًا، ﴿ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً ﴾ [المدثر: ٣١] أي: ضلالة «للذين» استقلُّوا عددهم ومحنة لهم، والمعنى: ما جعلنا عددهم هذا العدد المذكور في القرآن إلا ضلالة ومحنة لهم حتى قالوا ما قالوا ليتضاعف عذابهم ويكثر غضب الله عليهم.

وقيل: معنى ﴿ إِلَّا فِتْنَةً ﴾: إلا عذابًا كما في قوله: ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴾ [الذاريات: ١٣] أي: يعذبون، واللام في قوله: ﴿ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ [المدثر: ٣١] متعلق بجعلنا، والمراد بأهل الكتاب: اليهود والنصارى بنبوة محمد ﷺ لموافقة ما في القرآن لما في كتبهم، ﴿ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ﴾ وقيل: المراد الذين آمنوا من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام، وقيل: أراد الذين آمنوا المؤمنين من أمة محمد ﷺ، والمعنى: ليزدادوا يقينًا إلى يقينهم لما رأوا من موافقة أهل الكتاب لهم، وجملة ﴿ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ مقررة لما تقدم من الاستيقان وازدياد الإيمان، والمعنى: نفي الارتياب عنهم في الدين، أو في أن عدة خزنة جهنم تسعة عشر، ولا ارتياب في الحقيقة من المؤمنين ولكنه من باب التعريض لغيرهم ممن في قلبه شك ﴿ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ﴾ [المدثر: ٣١]، المراد بالذين في قلوبهم مرض هم المنافقون، والسورة وإن كانت مكية ولم يكن إذ ذاك نفاق فهو إخبار بما سيكون في المدينة، أو المراد بالمرض مجرد حصول الشك والريب وهو كائن في الكفار.

قال الحسين بن الفضل: السورة مكية ولم يكن بمكة نفاق، فالمرض في هذه الآية الخلاف،

والمراد بقوله: ﴿ هُمُ ﴾ كفار العرب من أهل مكة وغيرهم، ومعنى ﴿ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ﴾ أي شيء أراد بهذا العدد المستغرب استغراب المثل. قال الليث: المثل الحديث ومنه قوله: ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [الرعد: ٣٥] أي. حديثها الخبر عنها ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ ﴾ أي: مثل ذلك الإضلال المتقدم ذكره وهو قوله: ﴿ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ﴾، ﴿ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ ﴾ من عباده والكاف نعت مصدر محذوف، ﴿ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ من عباده، والمعنى: مثل ذلك الإضلال للكافرين والهداية للمؤمنين يضل الله من يشاء إضلاله ويهدي من يشاء هدايته. وقيل: المعنى: كذلك يضل الله عن الجنة من يشاء ويهدي إليها من يشاء، ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي: يعلم عدد خلقه ومقدار جموعه من الملائكة وغيرهم إلا هو وحده، لا يقدر على علم ذلك أحد، وقال عطاء: يعني من الملائكة الذين خلقهم لتعذيب أهل النار لا يعلم عدتهم إلا الله، والمعنى: أن خزنة النار وإن كانوا تسعة عشر فلهم من الأعوان والجنود من الملائكة ما لا يعلمه إلا الله سبحانه.

ثم رجع سبحانه إلى ذكر سقر فقال: ﴿ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴾ أي: وما سقر وما ذكر من عدد خزنتها إلا تذكرة وموعظة للعالم، وقيل: ﴿ وَمَا هِىَ ﴾ أي: الدلائل والحجج والقرآن إلا تذكرة للبشر، وقال الزجاج: نار الدنيا تذكرة لنار الآخرة وهو بعيد، وقيل: ﴿ وَمَا هِىَ ﴾ أي: عدة خزنة جهنم إلا تذكرة للبشر ليعلموا كمال قدرة الله، وأنه لا يحتاج إلى أعوان وأنصار. وقيل: الضمير في ﴿ وَمَا هِىَ ﴾ يرجع إلى الجنود)[1].

وقد رد الله تعالى عليهم افتراءهم وزعمهم ووصف ملائكته بالقوة في قوله تعالى: ﴿ مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦ ﴾ [التحريم: ٦].

(قال عمرو بن دينار: إن واحدًا منهم يدفع بالدفعة الواحدة في جهنم أكثر من ربيعة ومضر.

قال ابن عباس وقتادة والضحاك: لما نزلت هذه الآية قال أبو جهل لقريش: ثكلتكم أمهاتكم! أسمع ابن أبي كبشة يخبر أن خزنة النار تسعة عشر وأنتم الدهم -أي: الشجعان-

(١) فتح القدير (٥/ ٤٦٢).

أفيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا بواحد من خزنة جهنم؟ قال أبو الأشد أسيد بن كلدة بن خلف الجمحي: أنا أكفيكم منهم سبعة عشر؛ عشرة على ظهري وسبعة على بطني، فاكفوني أنتم اثنين.

وروي أنه قال: أنا أمشي بين أيديكم على الصراط فأدفع عشرة بمنكبي الأيمن وتسعة بمنكبي الأيسر في النار، ونمضي فندخل الجنة)[1].

٢- في جبريل وعداوة اليهود:

قال أبو جعفر: أجمع أهل العلم بالتأويل جميعًا على أن هذه الآية نزلت جوابًا لليهود من بني إسرائيل؛ إذ زعموا أن جبريل عدو لهم وأن ميكائيل ولي لهم، ثم اختلفوا في السبب الذي من أجله قالوا ذلك؛ فقال بعضهم: إنما كان سبب قيلهم ذلك من أجل مناظرة جرت بينهم وبين رسول الله ﷺ في أمر نبوته، ذكر من قال ذلك:

حدثنا أبو كريب قال: حدثنا يونس بن بكير عن عبد الحميد بن بهرام عن شهر بن حوشب عن ابن عباس أنه قال: حضرت عصابة من اليهود رسول الله ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم، حدثنا عن خلال نسألك عنهن لا يعلمهن إلا نبي، فقال رسول الله ﷺ: «**سلوا عما شئتم، ولكن اجعلوا لي ذمة الله وما أخذ يعقوب على بنيه، لئن أنا حدثتكم شيئًا فعرفتموه لتتابعني على الإسلام**» فقالوا: ذلك لك، فقال رسول الله ﷺ: «**سلوني عما شئتم**» فقالوا: أخبرنا عن أربع خلال نسألك عنهن: أخبرنا أي الطعام حرَّم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة؟ وأخبرنا كيف ماء المرأة وماء الرجل؟ وكيف يكون الذكر منه والأنثى؟ وأخبرنا بهذا النبي الأمي في النوم ومن وليه من الملائكة؟ فقال رسول الله ﷺ: «**عليكم عهد الله لئن أنا أنبأتكم لتتابعني**» فأعطوه ما شاء من عهد وميثاق، فقال: «**نشدتكم بالذي أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن إسرائيل مرض مرضًا شديدًا فطال سقمه منه، فنذر نذرًا لئن عافاه الله من سقمه ليحرمن أحب الطعام والشراب إليه، وكان أحب الطعام إليه لحم الإبل** -قال: أبو جعفر فيما أروي: **وأحب الشراب إليه ألبانها؟**-» فقالوا: اللهم نعم. فقال

(١) تفسير البغوي (١/ ٢٧٠).

رسول الله ﷺ: «**أشهد الله عليكم وأنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو الذي أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن ماء الرجل أبيض غليظ وأن ماء المرأة أصفر رقيق فأيهما علا كان له الولد والشبه بإذن الله، فإذا علا ماء الرجل ماء المرأة كان الولد ذكرًا بإذن الله، وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل كان الولد أنثى بإذن الله؟** قالوا: اللهم نعم. قال: «**اللهم اشهد**» قال: «**وأنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن هذا النبي الأمي تنام عيناه ولا ينام قلبه؟**» قالوا: اللهم نعم، قال: «**اللهم اشهد**». قالوا: أنت الآن تحدثنا من وليك من الملائكة فعندها نتابعك أو نفارقك. قال: «**فإن وليي جبريل، ولم يبعث الله نبيًّا قط إلا وهو وليه**». قالوا: فعندها نفارقك لو كان وليك سواه من الملائكة تابعناك وصدقناك. قال: «**فما يمنعكم أن تصدقوه؟**» قالوا: إنه عدونا، فأنزل الله عز وجل: ﴿ **مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ** ﴾ إلى قوله: ﴿ **كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾ فعندها باءوا بغضب على غضب.

حدثنا القاسم قال: حدثنا الحسين قال: حدثني حجاج عن ابن جريج قال: حدثني القاسم بن أبي بزة: (أن يهودًا سألوا النبي ﷺ: من صاحبه الذي ينزل عليه بالوحي؟ فقال: «**جبريل**» قالوا: فإنه لنا عدو ولا يأتي إلا بالحرب والشدة والقتال) فنزل: ﴿ **مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ** ﴾ الآية. قال ابن جريج: وقال مجاهد: قالت يهود: يا محمد، ما ينزل جبريل إلا بشدة وحرب، وقالوا: إنه لنا عدو، فنزل ﴿ **مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ** ﴾ الآية.

وقال آخرون: بل كان سبب قيلهم ذلك من أجل مناظرة جرت بين عمر بن الخطاب ﷺ وبينهم في أمر النبي ﷺ، ذكر من قال ذلك:

حدثني محمد بن المثنى قال: حدثنا ربعي بن علية عن داود بن أبي هند عن الشعبي قال: نزل عمر الروحاء فرأى رجالًا يبتدرون أحجارًا يصلون إليها، فقال: ما هؤلاء؟ قالوا: يزعمون أن رسول الله ﷺ صلى هاهنا، فكره ذلك وقال: أيما رسول الله ﷺ أدركته الصلاة بواد فصلى ثم ارتحل فتركه، ثم أنشأ يحدثهم فقال: كنت أشهد اليهود يوم مدراسهم[1] فأعجب

(١) مدراسهم: أي اجتماعهم، فيقال: يوم مدراسهم للزمان، ويقال: بيت مدراسهم للمكان، والفرقان هو القرآن الكريم.

من التوراة كيف تصدق الفرقان ومن الفرقان كيف يصدق التوراة، فبينما أنا عندهم ذات يوم قالوا: يابن الخطاب، ما من أصحابك أحد أحب إلينا منك، قلت: ولم ذلك؟ قالوا: إنك تغشانا وتأتينا، قال: قلت: إني آتيكم فأعجب من الفرقان كيف يصدق التوراة ومن التوراة كيف تصدق الفرقان، قال: ومر رسول الله ﷺ فقالوا: يابن الخطاب ذاك صاحبكم فالحق به، قال: فقلت لهم عند ذلك: أنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو وما استرعاكم من حقه واستودعكم من كتابه أتعلمون أنه رسول الله؟ قال: فسكتوا، قال: فقال عالمهم وكبيرهم: إنه قد عظم عليكم فأجيبوه، قالوا: أنت عالمنا وسيدنا فأجبه أنت، قال: أما إذ نشدتنا به فإنا نعلم أنه رسول الله، قال: قلت: ويحكم إذا هلكتم قالوا: إنا لم نهلك، قال: قلت: كيف ذاك وأنتم تعلمون أنه رسول الله ﷺ ثم لا تتبعونه ولا تصدقونه؟ قالوا: إن لنا عدوًّا من الملائكة وسلمًا من الملائكة، وإنه قرن به عدونا من الملائكة، قال: قلت: ومن عدوكم؟ ومن سلمكم؟ قالوا: عدونا جبريل وسلمنا ميكائيل، قال: قلت: وفيم عاديتم جبريل؟ وفيم سالمتم ميكائيل؟ قالوا: إن جبريل ملك الفظاظة والغلظة والإعسار والتشديد والعذاب ونحو هذا، وأن ميكائيل ملك الرأفة والرحمة والتخفيف ونحو هذا، قال: قلت: وما منزلتهما من ربهما؟ قالوا: أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره، قال: قلت: فوالله الذي لا إله إلا هو إنهما والذي بينهما لعدو لمن عاداهما وسلم لمن سالمهما، ما ينبغي لجبريل أن يسالم عدو ميكائيل ولا لميكائيل أن يسالم عدو جبريل، قال: ثم قمت فاتبعت النبي فلحقته وهو خارج من مخرفة لبني فلان، فقال لي: «**يابن الخطاب، ألا أقرئك آيات نزلن؟**» فقرأ عليَّ: ﴿ **قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ** ﴾ حتى قرأ الآيات، قال: قلت: بأبي وأمي أنت يا رسول الله، والذي بعثك بالحق لقد جئت وأنا أريد أن أخبرك الخبر، فأسمع اللطيف الخبير قد سبقني إليك بالخبر.

قال أبو جعفر: وأما تأويل الآية؛ أعني قوله: ﴿ **قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ** ﴾ فهو: أن الله يقول لنبيه: قل يا محمد لمعاشر اليهود من بني إسرائيل الذين زعموا أن جبريل لهم عدو من أجل أنه صاحب سطوات وعذاب وعقوبات لا صاحب وحي وتنزيل ورحمة، فأبوا اتباعك وجحدوا نبوتك وأنكروا ما جئتهم به من آياتي وبينات حكمي من أجل أن جبريل وليك وصاحب وحيي إليك، وزعموا أنه عدو لهم: من

يكن من الناس لجبريل عدوًّا ومنكرًا أن يكون صاحب وحي الله إلى أنبيائه وصاحب رحمته فإني له ولي وخليل ومقر بأنه صاحب وحي إلى أنبيائه ورسله، وأنه هو الذي ينزل وحي الله على قلبي من عند ربي بإذن ربي له بذلك يربط به على قلبي ويشد فؤادي، كما:

حدثنا أبو كريب قال: حدثنا عثمان بن سعيد قال: حدثنا بشر بن عمارة عن أبي روق عن الضحاك عن ابن عباس في قوله: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ ﴾ قال: وذلك أن اليهود قالت حين سألت محمدًا ﷺ عن أشياء كثيرة فأخبرهم بها على ما هي عندهم، إلا جبريل فإن جبريل كان عند اليهود صاحب عذاب وسطوة ولم يكن عندهم صاحب وحي؛ يعني: تنزيل من الله على رسله، ولا صاحب رحمة، فأخبرهم رسول الله ﷺ فيما سألوه عنه: أن جبريل صاحب وحي الله وصاحب نقمته وصاحب رحمته، فقالوا: ليس بصاحب وحي ولا رحمة، هو لنا عدو فأنزل الله عز وجل إكذابًا لهم: ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد: ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ يقول فإن جبريل نزله، يقول: نزل القرآن بأمر الله يشد به فؤادك ويربط به على قلبك؛ يعني: بوحينا الذي نزل به جبريل عليك من عند الله، وكذلك يفعل بالمرسلين والأنبياء من قبلك[1].

فالآية دلت على شرف جبريل وعلو منزلته عند ربه، وأنه الأمين على وحي ربه، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ [التكوير: ١٩-٢١]، والمنفذ لأوامره يستحق المحبة لا العداوة، بل إن الله تعالى عدو من عاداه، قال تعالى: ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٩٨].

٣- الحوار في الإيمان بالقدر:

يكرر القرآن الكريم ذكر القدر كثيرًا؛ تنبيهًا على أهميته وخطره العظيم في قبول الإيمان أو رده، وتكرره اليومي في وقائع الحياة، والتي تحتاج إلى صبر جميل لا يتم للعبد إلا من خلال إيمانه بالقدر ورضاه بقضاء الله له.

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٤٧٤- ٤٧٦).

والإيمان بالقدر أصل من أصول الإيمان الستة التي وردت في حديث جبريل.

تعريف القدر: هو قضاء الله الأزلي في الأشياء، وإيجادها على وفق هذا القضاء عند حلول أوقاتها، مع ربط الأسباب بالمسببات، والنتائج بالمقدمات في سنن إلهية خاضعة خضوعا مطلقًا لمشيئة الله تعالى وتقديره؛ كما قال تعالى: ﴿ **وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا** ﴾ [الأحزاب: ٣٨].

(فقدر: إشارة إلى ما سبق به القضاء والكتابة في اللوح المحفوظ، والمشار إليه بقول النبي ﷺ: «**فرغ ربكم من الخلق والأجل والرزق**»[(١)]، والمقدور: إشارة إلى ما يحدث عنه حالًا فحالًا مما قدر وهو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿ **كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ** ﴾ [الرحمن: ٢٩]، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿ **وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ** ﴾ [الحجر: ٢١])[(٢)].

ومن ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿ **وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ** ﴾ [البقرة: ١٠٢] (فبإذن الله تفعل الأسباب فعلها وتنشئ آثارها وتحقق نتائجها... وهذه قاعدة كلية في التصور لا بد من وضوحها في الضمير المؤمن تمامًا، وأقرب ما يمثل هذه القاعدة في هذا المقام، أنك إذا عرضت يدك للنار فإنها تحترق، ولكن هذا الاحتراق لا يكون إلا بإذن الله، فالله هو الذي أودع النار خاصية الحرق وأودع يدك خاصية الاحتراق بها، وهو قادر على أن يوقف هذه الخاصية حين لا يأذن لحكمة خاصة يريدها؛ كما وقع لإبراهيم عليه السلام... فكل مؤثر مودع خاصية التأثير بإذن الله، فهو يعمل بهذا الإذن، ويمكن أن يوقف مفعوله كما أعطاه هذا المفعول حين يشاء...)[(٣)].

القدر نوعان:

أولًا: قدر تكويني أو تصريفي.

ثانيًا: قدر تكليفي أو تشريعي.

---

(١) رواه أحمد في مسند أبي الدرداء ﷺ، والبزار، والطبراني بقريب من هذا اللفظ، وهو حديث صحيح.

(٢) المفردات للراغب الأصفهاني، مادة (قدر) (١/ ١١٦٤).

(٣) تفسير في ظلال القرآن (١/ ٩٦).

أولًا: القدر التكويني، التصريفي لا خيار لأحد فيه، والخلائق جميعًا لا تملك معه إلا أن تصدع لأمر ربها وخالقها؛ كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [النحل: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [غافر: ٦٨].

ثانيًا: القدر التشريع، التكليفي ففيه الخيار، وقد عرض على السموات والأرض والجبال فأبين استصغارًا، وحمله الإنسان اختيارًا حين خير، ليتم بذلك ما اقتضته حكمة الله تعالى من إيجاد جنس من الخلائق يكلف اختيارًا، ويترتب على سلوكه نوعية جزائه[(١)].

وقد بيّن الله تعالى مسألة المشيئة بقوله: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [الإنسان: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ أي: لا يقدر أحد أن يهدي نفسه ولا يدخل في الإيمان ولا يجر لنفسه نفعًا ﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ أي: عليم بمن يستحق الهداية فييسرها له ويقيض له أسبابها، ومن يستحق الغواية فيصرفه عن الهدى وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة، ولهذا قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾[(٢)].

قوله تعالى: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ ﴾ أي: الطاعة والاستقامة واتخاذ السبيل إلى الله، ﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ فأخبر أن الأمر إليه سبحانه ليس إليهم، وأنه لا تنفذ مشيئة أحد ولا تتقدم إلا أن تتقدم مشيئته، وقرأ ابن كثير وأبو عمر ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ ﴾ بالياء على معنى الخبر عنهم والباقون بالتاء على معنى المخاطبة لله سبحانه، وقيل: إن الآية الأولى منسوجة بالثانية، والأشبه أنه ليس بنسخ بل هو تبيين أن ذلك لا يكون إلا بمشيئته. قال الفراء: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ جواب لقوله: ﴿ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴾ ثم أخبرهم أن الأمر ليس إليهم فقال: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ ﴾ ذلك السبيل ﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ لكم ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا ﴾ بأعمالكم ﴿ حَكِيمًا ﴾

---

(١) المنهاج القرآني في التشريع (٣٤٨، ٣٤٩).

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٥٨٨).

في أمره ونهيه لكم وقد مضى في غير موضع[١].

﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ أي: وما تشاءون أن تتخذوا إلى الله سبيلًا إلا أن يشاء الله، فالأمر إليه سبحانه ليس إليهم، والخير والشر بيده، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، فمشيئة العبد مجردة لا تأتي بخير ولا تدفع شرًّا، وإن كان يثاب على المشيئة الصالحة ويؤجر على قصد الخير كما في حديث: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى**»[٢]. قال الزجاج: أي لستم تشاءون إلا بمشيئة الله ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ في أمره ونهيه: أي بليغ العلم والحكمة[٣]. ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ تحقيقًا للحق ببيان أن مجرد مشيئتهم غير كافية في اتخاذ السبيل كما هو المفهوم من ظاهر الشرطية؛ أي وما تشاءون اتخاذ السبيل ولا تقدرون على تحصيله في وقت من الأوقات إلا وقت مشيئته تعالى تحصيله لكم؛ إذ لا دخل لمشيئة العبد إلا في الكسب، وإنما التأثير والخلق لمشيئة الله عز وجل وقرئ: (يشاءون) بالياء، وقرئ: (إلا ما يشاء الله).

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ بيان لكون مشيئته تعالى مبنية على أساس العلم والحكمة، والمعنى: أنه تعالى مبالغ في العلم والحكمة، فيعلم ما يستأهله كل أحد فلا يشاء لهم إلا ما يستدعيه علمه وتقتضيه حكمته[٤].

والظاهر من النص ومن كلام أهل العلم عنه أن قدر الله كله تكويني وتكليفي مبني على غاية الحكمة والعلم المحيط؛ كما قال تعالى: ﴿ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَـٰدِرُونَ ﴾ [المرسلات: ٢٣]، وذلك في القدر التكويني، ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣]، وذلك في القدر التكليفي.

---

(١) تفسير القرطبي (١٩/ ١٣٥).

(٢) رواه البخاري، باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ؟ رقم (١)، وأبو داود، باب: فيما عنى به من الطلاق والنيات، رقم (٢٢٠٣)، والبيهقي وغيره.

(٣) تفسير فتح القدير (٥/ ٤٩٨).

(٤) تفسير أبو السعود (٩/ ٧٦).

فعلم البشر في الأشياء محدود لا ينفذ وراءها، وعلم الله بلا حدود، ومن ثم جاء أمر الله لنا بالتسليم المطلق لحكم الله تعالى؛ كما قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].

- لقدر الله أسرار يستحيل على البشر الإحاطة التامة بها لذا يلزمهم اليقين بأنها من خصائص العلم الإلهي، يطلع تعالى عليها من شاء من عباده بالقدر الذي يشاء، قال تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال تعالى: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًا ﴾ [الجن: ٢٦-٢٧].

ولله در الخضر عليه السلام في قصته مع نبي الله موسي عليه السلام حين كشف الله تعالى لنا بها جانبًا من أسرار قدر ه خفي على نبي من أولي العزم من الرسل، فكيف لا يخفى على من هم دونه، وفي الحديث الذي في صحيح مسلم قال رسول الله ﷺ: «**رحمة الله علينا وعلى موسى لولا أنه عجل لرأى العجب، ولكنه أخذته من صاحبه ذمامة ولو صبر لرأى العجب**»[(١)]. قال القرطبي: وكان إذا ذكر أحدًا من الأنبياء بدأ بنفسه: «**رحمة الله علينا وعلى أخي كذا**»، وفي البخاري عن النبي ﷺ قال: «**يرحم الله موسى لوددنا أنه صبر حتى يقص علينا من أمرهما**». الذمامة -بالذال المعجمة المفتوحة-: وهو بمعنى المذمة -بفتح الذال وكسرها- وهي: الرقة والعار من تلك الحرمة؛ يقال: أخذتني منك مذمة وذمامة، وكأنه استحيا من تكرار مخالفته ومما صدر عنه من تغليظ الإنكار[(٢)].

- نؤمن بالقدر ولا نحتج به:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «إن القدر نؤمن به ولا نحتج به، فمن احتج بالقدر

---

(١) رواه مسلم، باب: من فضائل الخضر عليه السلام، رقم (٢٣٨٠)، والنسائي (٦/ ٣٨٨)، وابن حبان وغيره.

(٢) تفسير القرطبي (١١/ ٢١).

فحجته داحضة، ومن اعتذر بالقدر فعذره غير مقبول، ولو كان الاحتجاج بالقدر مقبولًا لقبل من إبليس وغيره من العصاة، ولو كان القدر حجة للعباد لم يعذب الله أحدًا من الخلق لا في الدنيا ولا في الآخرة، ولو كان القدر حجة لم يقطع سارق، ولا قتل قاتل، ولا أقيم حد على ذي جريمة، ولا جوهد في سبيل الله، ولا أمر بمعروف، ولا نهي عن منكر»[1].

الخلاصة: لقد فهم الصحابة عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر أحسن الفهم، ففهموا أن الأجل والرزق، والحياة والممات، والنفع والضر، وكل شيء بيد الله تعالى، وأن المسلم مكلف بالسعي والعمل والأخذ بالأسباب على أحسن الوجوه، ولا يخاف غير ربه ولا يذل لسواه، ولا يعتز إلا به، ولا يأتي بمحرم، بل يتقن العمل ويجمل في الطلب ويحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه.

هذه العقيدة كانت لديهم أعظم قوة دافعة أو طاقة محركة، لم تخلد بهم إلى الأرض، وإنما حلقت بهم في آفاق الفضائل، وجلائل الأعمال، وحققوا بها خوارق التاريخ، وعظائم الأمور، فصبروا على الشدائد، وقارعوا الخطوب، واقتحموا لجة الموت، وضربوا في مناكب الأرض، واجتازوا الحزن والسهل في ربيل الله، وبلغوا الغاية في قول الحق، والنصح في الدين، والترفع عن الحرام، فلم يسيئوا فهم القدر فيركنوا عليه ويتواكلوا كما فعل ذلك بعض من بعدهم وخاصة في أجيالنا المتأخرة، فتركنا بلاد الإسلام نهبة لكل طامع فلا يجد فيها من يحول بينه وبين عدوانه وإفساده فيها.

إن أصحاب الحضارات قد نازعوا في القدر وجادلوا فيه وجعلوا لأنفسهم سننًا فيه؛ وجاء القرآن الكريم بالرد عليهم، وعلى سبيل المثال لا الحصر: لقد تذرع المشركون بالقدر واحتجوا لضلالهم بمشيئة الارتضاء أو الاقتضاء، كما في قوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، ومن ذلك أيضا قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا

(١) رسالة القضاء والقدر لابن تيمية (ص ٨).

عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النحل: ٣٥].

وهذا يدلنا على أنهم تعلقوا بالمشيئة الإلهية الصحيحة على وجه باطل خبيث؛ وبيان ذلك:

أولًا: تعلقهم بالمشيئة الإلهية الصحيحة:

دل عليها القرآن الكريم كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ [الأنعام: ٣٥]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ [الأنعام: ١٠٧]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ [الأنعام: ١٣٧]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٣]؛ أي: أمة واحدة متفقة على الحق[(١)] أو على الإسلام[(٢)]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [الشورى: ٨]، قال ابن كثير: «أي إما على الهداية أو على الضلالة، ولكنه تعالى فاوت بينهم فهدى من يشاء إلى الحق وأضل من يشاء عنه، وله الحكمة والحجة البالغة»[(٣)].

ثانيًا: كون الاحتجاج بالمشيئة باطل خبيث:

١- هم لم يريدوا الاحتجاج بجبر القدر لهم -شركًا وتشريعًا- لأنهم لو قصدوا ذلك وقالوه لكان مكابرة محضة، فهم يلمسون يقينًا في أنفسهم جانبًا اختياريًّا.

٢- هم رتَّبوا على الأصل الصحيح أمرًا في غاية الفساد، فأرادوا الاحتجاج -لشرعية باطلهم- بمشيئة الارتضاء؛ بمعنى أن الله تعالى علم ما هم عليه ولو كرهه لغيره قسرًا عنهم، ولما لم يغيره دل على رضاه عنه، قال البيضاوي: «أرادوا بذلك أنهم على الحق المشروع المرضي

---

(١) فتح القدير للشوكاني (٣/ ٢٧٤).

(٢) ذكره البغوي (١/ ٤٠)، والبيضاوي (١/ ٤١٨)، والألوسي (١٤/ ٢٢٢).

(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ١٣٦).

عند الله، لا الاعتذار عن ارتكاب هذه القبائح بإرادة الله إياها منهم»[(١)].

وأكد ذلك الإمام البغوي فقال: «وقالوا: إن الله تعالى قادر على أن يحول بيننا وبين ما نحن عليه حتى لا نفعله، فلولا أنه رضي بما نحن عليه وأراده منا وأمرنا به لحال بيننا وبين ذلك، فقال الله تعالى تكذيبًا لهم: ﴿ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ من كفار الأمم الخالية ﴿ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ﴾ عذابنا»[(٢)].

ثالثًا: الرد على دعوى الاحتجاج بالمشيئة:

قال الخازن في تفسيره: «والدليل على أن التكذيب في قولهم: إن الله أمرنا بهذا ورضيه منا، لا في قولهم: لو شاء الله ما أشركنا قوله: ﴿ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [الأنعام: ١٤٨] بالتشديد، ولو كان خبرًا من الله عن كذبهم في قولهم: ﴿ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا ﴾ لقال: ﴿ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ﴾ بالتخفيف، فكان ينسبهم إلى الكذب لا إلى التكذيب. وقال الحسن بن الفضل: لو قالوا هذه المقالة تعظيمًا لله، وإجلالًا له، ومعرفة بحقه وبما يقولون لما عابهم بذلك، ولكنهم قالوا هذه المقالة تكذيبًا وجدلًا...»[(٣)].

لقد صرح القرآن الكريم بأنهم نسبوا جرائمهم لأمر الله وتشريعه، فقال عنهم تعالى: ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴾، ورد تعالى عليهم بقوله: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٨-٢٩].

ورد أيضًا بقوله: ﴿ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ [الزمر: ٧].

وهناك أمثلة أخرى لا مجال لبحثها هنا حتى لا يطول بنا البحث.

---

(١) تفسير البيضاوي (١/ ٤٦٢).

(٢) تفسير البغوي (١/ ٢٠١).

(٣) تفسير الخازن (٢/ ١٩٧).

المطلب الثاني
معرفة الإنسان لنفسه
وكيفية التعامل معها

لقد أفاض القرآن الكريم في الحديث عن الإنسان ومهمته في الإطار العام للكون ومسئوليته في وظيفة العبودية لله رب العالمين.

(إن حديث القرآن ليبلغ غاية الشموخ والدقة والتفصيل حين يحدثنا عن مادة الخلق الإنساني، وأطوارها، ونوعية خلقها، وبدء حياة الإنسان، ومكانها، وما أحيط به من تكريم وإجلال، ومسكنه الأول، ثم يحدثنا عن الملابسات التي جاءت به إلى هذا الكوكب، وما زود به لهذه الحياة الجديدة من حيث هو خليفة في الأرض، يقيم فيها الحق والعدل، ويجاهد نفسه حتى يقطع رحلة العمر -على هدى من الله ونور- ليعود من جديد إلى دار السلام التي شهدت فجر حياته، ويستأنف فيها حياة الكرامة والخلود، إن كان قد أحسن مهمته وسعيه في هذا الوجود، وحق القرآن أن يصف هذا الحديث بوصفه الجامع)[1].

والإنسان جزء من هذا الكون الكبير الذي جعل الله فيه لكل مخلوق فلك يسبح فيه، فلا يبغي مخلوق على فلك غيره ولا يعتدي عليه، قال الله تعالى: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣]، وللإنسان فلك رسمه الله تعالى له، وحدد له معالمه وهداه إليه، وهيأه لولوجه والسير فيه، ووهبه روحًا وجسدًا بكل ما فيهما من ملكات تعينه على أداء مهمته كأكمل ما يكون الأداء، قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]، بل إن الإنسان مطالب أن يتعامل مع روحه وجسده، وهذا يتطلب منه أن يعرف قواعد التعامل معهما، بل ويعرف طبيعة كل منهما، والواقع التاريخي والمشاهد للحضارات يشهد بمدى علم الإنسان بمادته وروحه، ومدى جهله.

---

(١) المنهاج القرآني في التشريع للأستاذ الدكتور/ عبد الستار فتح الله سعيد (ص٦٧).

أولًا: علم الإنسان بمادته وجسده:

بالنظر إلى الواقع نجد أن علم الإنسان بخلق مادة جسده وطبيعة هذه المادة لا يزال في مهده يحبو، فمنذ خلق الله أبانا آدم إلى يومنا هذا في القرن الحادي والعشرين وما زلنا نستكشف في هذا الجسد، بل كلما أذن الله لنا نكتشف الجديد الذي لم يسبق للبشرية معرفته، دلنا اكتشافنا لهذا الجديد على جهل البشرية بذلك على مدى تاريخها السابق لهذا الاكتشاف، ولله در الإمام الشافعي حين قال:

كلما أدبني الدهر أراني نقص عقلي وإذا ما ازددت علمًا زادني علمًا بجهلي[1]

وقد ذكر بعض علماء الطب أن ما اكتشف على سبيل المثال لا الحصر من علوم مخ الإنسان لا يتجاوز ٠,٣٪ «ثلاثة من عشرة في المائة».

العلم بالخلق:

لا أحد أعلم بخلق الإنسان من ربه الذي خلقه، قال تعالى: ﴿ **أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ** ﴾ [الملك: ١٤]، بل ما شهد الإنسان بدء خلقه، قال تعالى: ﴿ **مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا** ﴾ [الكهف: ٥١]، ولا شهد إتمام خلقه، قال تعالى: ﴿ **يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ** ﴾ [الزمر: ٦]، ولا شهد أطوار خلقه كما في الآية السابقة والتي جاء تفصيلها في قوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ** ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤].

وهذا المعنى صريح في أن الله تعالى له أصل الخلق والإيجاد، كما أن له نقل الأطوار في مراتب الأحوال، ولقد حاور الله تعالى الإنسان أيًّا كانت حضارته أو زمانه في مسألة الخلق في

---

(١) دواوين الشعر العربي على مر العصور، رقم القصيدة (١٤٢٨٩)، (٩/ ٢٥٠)، الوافي في الوفيات (١/ ٢٢٥).

مواضع عدة في القرآن الكريم؛ كقوله تعالى: ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ [الواقعة: ٥٧-٥٩]، وقوله تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ [الطور: ٣٥].

وقوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴾ [الصافات: ١١]، وقوله تعالى عن الأطوار: ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ [نوح: ١٤]، قوله تعالى عن صاحب الجنتين وصاحبه: ﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ ﴾ [الكهف: ٣٧].

ثانيًا: علم الإنسان بالروح:

فهذا باب لا طاقة لابن آدم فيه على ادعاء العلم بهذه الروح غير إقراره بوجود هذه اللطيفة الربانية فيه وأنها سر حياته، فالمرء بالروح لا بالجسم إنسان، وهو على يقين أنها إذا خرجت منه ساعة احتضاره صار جثة هامدة لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا، وقد بين الله تعالى حقيقة هذا الأمر في قوله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥]، بل وحاور أصحاب الحضارات وغيرهم بشأنها كما في قوله تعالى: ﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الواقعة: ٨٣-٨٧]، أي: فلولا إن كنتم غير راجعين إلى رب العالمين ترجعون الروح إلى المحتضر ثانية؛ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴾ [القيامة: ٢٦-٣٠]، وغيرها.

الخلاصة: إذا كان الإنسان لا يقوى أن يدَّعي علمًا بالروح وعلمه بالجسد محدود، فكيف يمكنه التعامل مع ما يجهل بدون دليل من عند صانعه والعليم بأسراره، لذا بين الله تعالى أنه خالق الإنسان وحده ومالكه؛ وفي هذا يقول تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يونس: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ

﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ [يونس: ٦٦]، وقال تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [النور: ٦٤].

وأنه تعالى وحده صاحب الأمر في جميع شئونه، والأمر هنا بمعني التكليف والذي هو مصدر أمرته وجمعه أوامر، وهو لفظ عام يشمل الاعتقاد والأقوال والأفعال جميعًا، وفى هذا يقول تعالى: ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، ﴿ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ﴾ [الرعد: ٣١]، وعلاقة الأمر بالخلق علاقة لزوم وترتب، وترتب الأمر على الخلق حقيقة شرعية لما سبق من نصوص تفيد تفرده تعالى بالخلق والأمر -تصريفًا كان أم تشريعًا- وهذا ملحوظ من «اللام» في الآيات في قوله تعالى: ﴿ لَهُۥ ﴾ ﴿ لِلَّهِ ﴾ وهي تفيد الاختصاص والملك.

(والمبدأ هنا عام شامل في الخلق والأمر جميعًا، لم يقيد بشيءٍ ما، فهو أعم من خلق الأشياء المذكورة، وأعم من الأمر الذي صدر لهذه الكائنات المذكورة بأن تمضي على نمط معين وحساب محدد، ولذلك أطلق عن الإضافة والتقييد.

فتقرر من هذا أن الله تعالى هو الخالق بإطلاق، والمالك لما خلق بإطلاق، والذي يختص بأمرها، فهو الآمر لها على الإطلاق، وما الإنسان في ذلك إلا كهذه الأجرام السابحة المسخرة، يخضع لسنن الله وشريعته، لكنه تفرد عنها بالاختيار الذي وهبه الله له، حسبما اقتضته حكمته تعالى في خلق الأشياء والأحياء، ولذلك استفاض حديث القرآن الكريم في تقرير هذا الأمر وشرحه وتفصيله، حتى يقطع على أهل الضلالة معاذيرهم، ولئلا تكون للناس على الله حجة بعد الرسل في هذه القضية الخطيرة وما يترتب عليها)[1].

لقد حاور القرآن الكريم أصحاب الحضارات في مسألة الخلق والأمر وأشبعهم أدلة بما يدفع به كل شبهة، كما في قوله تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ

(١) المنهاج القرآني في التشريع (ص٢٣)، للأستاذ الدكتور/ عبد الستار فتح الله سعيد، طبعة دار الطباعة والنشر الإسلامية.

خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ [الطور: ٣٥-٣٨]، وقال تعالى: ﴿ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ [الواقعة: ٥٩]، ﴿ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴾ [الواقعة: ٦٤]، ﴿ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴾ [الواقعة: ٦٩]، ﴿ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴾ [الواقعة: ٧٢]، ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴾ [النازعات: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [يونس: ٣]، ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٣١]، ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [هود: ١٢٣]، ﴿ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ﴾ [الرعد: ٣١]، ﴿ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [الروم: ٤]، ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ [السجدة: ٥]، ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الجاثية: ١٨]، ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾ [الطلاق: ١٢].

الإنسان خلق من خلق الله تعالى، تجري عليه أوامر الله تعالى في نفسه وقلبه وسمعه وبصره وسائر جوارحه، بل لا استقامة لشيء منها بدون أوامر الله تعالى.

لقد جعل تعالى لكل جارحة فينا أمرًا وتشريعًا، فاستقامة العين بفعل أوامره لها وترك نواهيه، واستقامة الأذن بمثل هذا وكذلك سائر الجوارح، فلن يجد الإنسان أعدل ولا أقسط من خالقه في التشريع له، قال تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ

ضَعِيفًا ﴾ [النساء: ٢٦-٢٨]، وقال تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [المائدة: ٦]، ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ [البقرة: ١٨٥].

بل هذا حق لله تعالى ولرسوله ﷺ، قال تعالى عن حقه: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠]، وقال تعالى عن حق رسوله ﷺ: ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ [الأحزاب: ٦].

سعادة الروح والبدن:

ولقد بيَّن تعالى أن حياة الإنسان الحقيقية وسعادته لا تتحقق إلا بتنفيذه أوامر الله تعالى وإقامته لتكاليفه؛ قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأنفال: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ [طه: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿ طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴾ [طه: ١-٢]، وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ [محمد: ٢]، والسعادة هي صلاح البال وطمأنينة القلب وراحة النفس.

والقلب والنفس وما يدور فيهما من خواطر وأفكار وهمم وعزائم وإرادات يبني ويترتب عليها أفعال العباد وأقوالهم، كل هذه الأمور التي تدور في خلد الإنسان وباله والتي لا طاقة له بمعرفتها لولا بيان الله تعالى في وحيه ونوره الذي أنزله لعباده.

فبهذين الأصلين؛ **الأول**: سلامة قلبه والذي بسلامته تسلم جميع جوارحه، كما ثبت في الحديث الشريف، قال رسول الله ﷺ «**ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله**

وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب...»[(١)].

الثاني: النور هو الوحي، كما قال تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ [التغابن: ٨]، فالإيمان بالله ورسوله هو عمل القلب ومصدر سلامته وصحته، والنور وهو المنزل من عند خالق هذا الإنسان المفصل لكل احتياجاته الباطنة والظاهرة، كما قال تعالى: ﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡتَغِي حَكَمٗا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗاۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٞ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾ [الأنعام: ١١٤]، وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

فإذا أذن الله تعالى بالتقاء هذين الأصلين نور الوحي مع نور القلب وسلامته فثم الحياة وثم السعادة، وفي هذا يقول تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۗ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [النور: ٣٥].

قال ابن قيم الجوزية -رحمه الله تعالى-: «أصل كل خير وسعادة للعبد بل لكل حي ناطق: كمال حياته ونوره، فالحياة والنور مادة الخير كله، قال الله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، فجمع بين الأصلين: الحياة والنور، فبالحياة تكون قوته وسمعه وبصره وحياؤه وعفته وشجاعته وصبره وسائر أخلاقه الفاضلة، ومحبته للحسن وبغضه للقبيح، فكلما قويت حياته قويت فيه هذه الصفات، وإذا ضعفت حياته ضعفت فيه هذه الصفات، وحياؤه من القبائح هو بحسب حياته في نفسه، فالقلب

---

(١) رواه البخاري باب فضل من استبراء لدينه رقم (٥٢) ومسلم باب أخذ الحلال وترك الشبهات رقم (١٥٩٩)، ورواه البيهقي في السنن الكبرى (٥/ ٢٦٤)، رقم (١٠١٨٠) من حديث النعمان بن بشير ﷺ.

الصحيح الحي إذا عرضت عليه القبائح نفر منها بطبعه وأبغضها ولم يلتفت إليها، بخلاف القلب الميت فإنه لا يفرق بين الحسن والقبيح، كما قال عبد الله بن مسعود ﷺ: هلك من لم يكن له قلب يعرف به المعروف وينكر به المنكر»[(١)].

وما من أحد من أصحاب الحضارات إلا وهمه الأكبر تحقيق السعادة لنفسه، والتي من أجلها بذل في الحياة جهده وأفنى عمره لتحقيقها، وأنى لهم بذلك بعيدًا عن كتاب الله تعالى ووحيه، ولذا حاورهم القرآن في ذلك وأثبت لهم ألا سلطان لهم على قلوبهم ولا طاقة لهم في إدخال السعادة عليه، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأنفال: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴾ [الحج: ١٥].

شفاء لكل أمراض الصدور:

لقد جمع الله تعالى في كتابه أدوية أمراض قلوب عباده أجمعين، فلم يدع داءً إلا ووضع له الدواء، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [يونس: ٥٧].

و«ما» في الآية من ألفاظ العموم كما ذكر علماء الأصول، فهي تعم كل ما في الصدور من أمراض وغيرها، والمتدبر يجد أن: (جماع أمراض القلب هي أمراض الشبهات والشهوات، والقرآن شفاء للنوعين، ففيه من البينات والبراهين القطعية ما يبين الحق من الباطل، فتزول أمراض الشبه المفسدة للعلم والتصور والإدراك بحيث يرى الأشياء على ما هي عليه، وليس تحت أديم السماء كتاب متضمن للبراهين والآيات على المطالب العالية؛ من التوحيد وإثبات الصفات وإثبات المعاد والنبوات ورد النحل الباطلة والآراء الفاسدة مثل القرآن، فإنه كفيل بذلك كله، متضمن له على أتم الوجوه وأحسنها وأقربها إلى العقول وأفصحها بيانًا، فهو الشفاء على الحقيقة من أدواء الشبه والشكوك، ولكن ذلك موقوف على فهمه ومعرفة المراد

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان لابن قيم الجوزية (١/ ٣٨).

منه، فمن رزقه الله تعالى ذلك أبصر الحق والباطل عيانًا بقلبه كما يرى الليل والنهار، وعلم أن ما عداه من كتب الناس وآرائهم ومعقولاتهم؛ بين علوم لا ثقة بها وإنما هي آراء وتقليد، وبين ظنون كاذبة لا تغني عن الحق شيئا، وبين أمور صحيحة لا منفعة للقلب فيها، وبين علوم صحيحة قد وعروا الطريق إلى تحصيلها وأطالوا الكلام في إثباتها مع قلة نفعها فهي لحم جمل غث على رأس جبل وعر لا سهل فيرتقي ولا سمين فينتقل، وأحسن ما عند المتكلمين وغيرهم فهو في القرآن أصح تقريرًا وأحسن تفسيرًا)[١].

وباعتبار عظم هذه الأمراض وعظم تأثيرها على الإنسان فإنها تنقسم إلى نوعين، قال عنهما ابن القيم -رحمه الله تعالى-: «مرض القلب نوعان: نوع لا يتألم به صاحبه في الحال؛ وهو كمرض الجهل ومرض الشبهات والشكوك ومرض الشهوات، وهذا النوع هو أعظم النوعين ألمًا، ولكن لفساد القلب لا يحس بالألم، ولأن سكرة الجهل والهوى تحول بينه وبين إدراك الألم وإلا فألمه حاضر فيه حاصل له، وهو متوارٍ عنه باشتغاله بضده وهذا أخطر المرضين وأصعبهما، وعلاجه إلى الرسل واتباعهم؛ فهم أطباء هذا المرض.

والنوع الثاني: مرض مؤلم له في الحال؛ كالهم والغم والغيظ، وهذا المرض قد يزول بأدوية طبيعية؛ كإزالة أسبابه، أو بالمداواة بما يضاد تلك الأسباب وما يدفع موجبها مع قيامها، وهذا كما أن القلب قد يتألم بما يتألم به البدن ويشقى بما يشقى به البدن، فكذلك البدن يتألم كثيرًا بما يتألم به القلب ويشقيه ما يشقيه»[٢].

جند الله:

لقد وهبنا الله تعالى أعضاءنا وجوارنا وسخرها لنا ومكننا منها وجندها لنا لتعمل تحت أمرنا، مع أنها مِلكه تعالى وجنود من جنوده له تسبح وله تسجد وله تسلم وله تقنت بالكيفية التي قدرها تعالى لها وإن لم نعرفها أو لم نفقهّا، كما قال تعالى: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان لابن قيم الجوزية (١/ ٤٤).

(٢) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان لابن القيم (١/ ١٨).

حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴾ [الرعد: ١٥]، وقال تعالى: ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [آل عمران: ٨٣]، وقال تعالى: ﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾ [الروم: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾ [البقرة: ١١٦]، وسيأتي لذلك تفصيل (١).

بل إن الله تعالى جعلها شهودًا على أصحابها تشهد عليهم يوم القيامة في كل ما خالفوا فيه أمر الله، وتحاورهم وتحاججهم في ذلك، وفي هذا يقول تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [فصلت: ٢٠-٢١].

وقال تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴾ [يس: ٦٥-٦٦].

فإذا كان الله تعالى هو وحده خالق جوارحنا وقلوبنا وأرواحنا، وهو مالكها ومسخرها ومدبر أمرها وجامعها علينا يوم لقائه، ومشهدها على كل ما كان منا، فمن له حق الأمر وحق التشريع وحق الطاعة غيره، قال تعالى: ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ﴾ [الأنعام: ١١٤]، وقال تعالى: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠].

ونخلص من ذلك في مجال معاملة الإنسان لنفسه: أن لله وحده حق الخلق وحق الأمر والتشريع، وحق الهداية والإرشاد؛ فلا أحد أعلم منه بأسرار هذا الإنسان، ولا أحد أقدر على التشريع له من العليم الخبير، والذي قال عن تشريعه ومنهجه الذي رسمه لعباده: ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ

(١) ارجع إلى المطلب الرابع من هذا الفصل.

﴿ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان: ٦]، بل هذا حق الخالق على خلقه أن يعبدوه لا يشركوا به شيئًا، وهو حق الخلق على خالقهم أن يشرع لهم ما يصلحهم ويصلح لهم دنياهم وآخرتهم.

وأصحاب الحضارات انقسموا إلى فريقين: فريق عرف أن الله حق فآمن به وبرسله وكتبه واتبع أمره وترك نهيه، فأنزل الله عليه سكينته وأسعده وقواه وأعانه على طاعته، كما حدث مع السحرة حين عاينوا الحق وآمنوا فتحولوا في لحظة من محاويج يستعطفون فرعون طلبًا لعطاياه ﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾ [الأعراف: ١١٣]، ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾ [الشعراء: ٤١] إلى مستيقنين بالله يواجهون فرعون لا يخشون بطشه ولا يطمعون فيما عنده، كما قال تعالى عنهم: ﴿ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ۝ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٥٠-٥١]، وقال أيضًا: ﴿ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ۝ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [طه: ٧٣].

وفريق ركب رأسه وانتكس على عقبه فأذاقه الله الخزي والعذاب في الحياة الدنيا والآخرة، كما حدث مع فرعون ومن استخفه من قومه فاتبعه وأهله ممن قال الله فيهم: ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ [الزخرف: ٥٤]، فأرسل الله عليهم عذاب تذكير لعلهم يرجعون في صورة رجز، قال عنه تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ۝ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ۝ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٣-١٣٦].

كل هذا في الدنيا، بل أخبر تعالى عن حالهم في قبورهم بعد غرقهم فقال: ﴿ وَحَاقَ بِـَٔالِ

﴿فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٥-٤٦].

وبمثل هذه الصور وغيرها من صور العذاب في الدنيا والآخرة عُذب كل من كذب وأجرم من أصحاب الحضارات، وعُوفِيَ من عُوفِي من أهل الإيمان، ولله الحمد والمنة.

والقرآن الكريم يذكر محاورة الأنبياء لأصحاب الحضارات في هذا، فيصف لنا كيف أن كل نبي وكل إنسان لا يكلف إلا نفسه ليقومها ويصحح مسيرتها، قال تعالى: ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ [النساء: ٨٤]، وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [المائدة: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ [الجن: ٢١].

وهذا نبي الله إبراهيم عليه السلام حين هدده والده بالقتل يعتزلهم ليخلو مع نفسه تقويمًا لها، كما قال تعالى: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤٨]، ولما اشتد عليه قومه اعتزلهم قائلًا: ﴿وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات: ٩٩]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [العنكبوت: ٢٩].

وهذا نبي الله موسى حين خُيِّل إليه أن حبال وعصي السحرة صارت حيات تسعى فتوجس خيفة، فجاءه نداء الله ووحيه تثبيتًا له، قال تعالى: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [طه: ٦٦-٦٨]، وحين طلب من نبي الله موسى من قومه دخول الأرض المقدسة فتبرأ إلى الله منهم، وفزع إلى الله متذللًا أنه لا يملك إلا نفسه، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٥].

وهذا نبي الله عيسى عليه السلام يتبرأ ممن اتخذوه وأمه إلهين من دون الله ويخضع النفس لآمرها، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ

مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥ ۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ ﴾ [المائدة: ١١٦]، بل بهذه النفس وطغيانها هلكت ثمود، قال تعالى: ﴿ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا ﴾ [الشمس: ١١-١٤]، وقال تعالى: ﴿ فَنَادَوۡاْ صَاحِبَهُمۡ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴾ [القمر: ٢٩]، ﴿ فَعَقَرُوهَا فَأَصۡبَحُواْ نَٰدِمِينَ ﴾ [الشعراء: ١٥٧].

@sheikandil.com

المطلب الثالث
معرفة الإنسان للبشر
وكيفية التعامل معهم

إن من أطول الحضانات حضانة الإنسان، فهو يحتاج عامين للرضاعة، قال تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤]، ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا ﴾ [الأحقاف: ١٥].

وبعد الرضاع يحتاج لحضانة تتراوح بين سبعة إلى أربعة عشر عامًا، فسن البلوغ والتكليف للإنسان يبدأ من سن التاسعة عند الإناث والعاشرة عند الذكور ويستمر عند البعض حتى سن الخامسة عشر أو السادسة عشر[1]، وهذه من أطول الحضانات، فجُل المخلوقات لا تستغرق حضانتها إلا سويعات أو أيامًا أو شهورًا، وهذا يدلنا على عظم هذا الإنسان وتكريم الله تعالى له، ولذا أتاح له أطول فترة تعليم حتى يؤهل لحمل أعظم أمانة وأعظم تكليف، أمانة ناء بحملها السموات والأرض وحملها الإنسان، وقال عنها تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢]، هذه الأمانة التي كلّف الإنسان بتعلمها وفهمها والعمل بها في نفسه ومع الناس من حوله، فهو لا يحيا على هذه الأرض وحده، بل هو جزء من هذه البشرية المنتشرة بطول الأرض وعرضها، يؤثر فيها ويتأثر بها شاء أم أبى، رضي أم لم يرض.

---

(١) ذكر فقهاء المذاهب أنه بالاستقراء تبين أن بدء محيض المرأة في التاسعة وبدء سن بلوغ الرجل في العاشرة ويستمر بدئه عند بعضهم حتى الخامسة عشر أو السادسة عشر واستدلوا على ذلك بخبر عبد الله بن عمر قال: «عرضني رسول الله ﷺ يوم أحد للقتال وأنا ابن أربعة عشر سنة فلم يجزني، وعرضني يوم الخندق وأنا ابن خمس عشر سنة فأجزني» والحديث متفق عليه واللفظ لمسلم، قال عمر بن عبد العزيز لما بلغه هذا الحديث إن هذا الفرق بين الصغير والكبير نقل ذلك فتاوى الشبكة الإسلامية المعدلة باب علامات بلوغ الذكر والأنثى (٣/ ١٩).

ولذا كان أهم موضوعات الأمانة: حمل الحق المنزل من عند الله تعالى لعباده، وحملهم عليه إصلاحًا لهم ولمعاشهم، وإسعادًا لهم في دنياهم وآخرتهم، وإنقاذًا لهم من عذاب دنيا غُيّب الحق عنها فسادها الظلم وذاق بعضهم بأس بعض، ونجاة لهم من غضب الله في الدنيا والآخرة ومن عذاب النار يوم القيامة.

فحمل الأمانة يستوجب على الإنسان أن يصلح من نفسه، وأن يصلح الناس من حوله ما استطاع في أيام عمره المحدودة والمحددة، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴾ [الأنعام: ٢]، وقال تعالى عن مهمة نبيه شعيب عليه السلام: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ ﴾ [هود: ٨٨].

حقيقة الأمانة:

بيَّنا في صدر هذا الفصل مدى جهل الإنسان بأسرار نفسه وأسرار الخلق من حوله مما حدا به للوقوع في المظالم مع مَن حوله من المخلوقات، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢]، وأنّى للجهول أن تصدر عنه حكمة، وأنّى للظلوم أن يصدر عنه عدلًا؛ لذا تكفل الخالق الذي أحاط بكل شيءٍ علما، وقام بالعدل والقسط في الخلق كله بوضع ميزان العدل والقسط المبني على علمه؛ رفعا للظلم عن عباده، ونشرا للعدل بينهم، وإحقاقًا للحق، وإبطالًا للباطل في دنياهم وآخرتهم، ويفصل لنا القرآن ذلك:

كما في قوله تعالى عن علمه: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾ [الطلاق: ١٢].

وفي قوله تعالى عن قيامه بأكمل العدل: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ١٨].

وفي قوله تعالى عن وضعه الميزان وبنائه على علمه: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ﴾ [الرحمن: ١-٤].

وقوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ﴾ [الرحمن: ٧-٩]، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝٨ ﴾ [المائدة: ٨]، وقال تعالى: ﴿ قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِ ﴾ [الحديد: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، فهذا الإله الحق له الحق كل الحق في التشريع لعباده؛ بل هذا حقه الخالص له وحده وإن نازعه في ذلك من نازع من أصحاب الحضارات على مر التاريخ كله، وإليك بيان ذلك:

أحقية الله في التشريع:

١- **العلم بالتشريع**: يعتمد كل من يشرع للناس من أصحاب الحضارات وغيرهم على علمهم بأحوال الناس المبني على تجاربهم السابقة في تعاملهم مع الناس، وهذه التجارب مهما عظمت محدودة بمن يتعامل معهم ذلك المشرع، ومهما كثروا فهم قلة من جيله، فلا طاقة لأي زاعم أن له حق في التشريع للناس أن يدعي أنه جرب التعامل مع كل إنسان عاصره في مشارق الأرض ومغاربها، فتجاربه محدودة وطاقته فيها محدودة، وكما قال عن ذلك تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٦ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ﴾ [الروم: ٦-٧]، وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ [الإسراء: ٨٥].

أما علم الله بالتشريع فعلم غير محدود، فهو تعالى أحاط بكل شيء علمًا كما وصف بذلك

نفسه فقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾ [الطلاق: ١٢]، ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ﴾ [الإسراء: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ [النساء: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿ إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

وهو تعالى الخبير بكل تجارب البشرية بلا حدود مكانية؛ فعلمه محيط لكل أهل الأرض من مشرقها إلى مغربها، وبلا حدود زمانية؛ فعلمه محيط بالبشرية من قبل خلق آدم بل من الأزل إلى قيام الساعة بل وإلى الأبد، لذا بيَّن تعالى أن تشريعه الذي حواه كتابه بناه على علمه، قال تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ [الشورى: ١٣]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان: ٦]، وقال تعالى: ﴿ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ [طه: ٧].

٢- **علم الإنسان**: أضف إلى ما سبق أن علم ألإنسان لا يتجاوز من الإنسان -كما سبق بيانه- إلا بعض ظواهر مادة الإنسان، ولا علم له بروحه البتة، مع العلم أن الإنسان يتعامل مع القوانين والشرائع بروحه ومادته جميعًا، فكيف يشرع الإنسان لما لا علم له به ويترك تشريع العليم الخبير: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الملك: ١٤].

٣- **تجارب الإنسان**: إن الشرائع والقوانين التي يسنها الإنسان لغيره من البشر بناءً على تجاربه السابقة يسنها لواقع جديد ومستقبل وأجيال غير التي خاض التجارب معها، فما الذي يضمن له صلاح الأجيال الجديدة وقبولها لهذه الشرائع؟! وما الذي يضمن له وقوع المستقبل وهو غيب عنه حين شرع بناء على الواقع الماضي الذي بني وسن عليه تشريعه؟! إن الفاحص

البصير يدرك أن تشريع الإنسان للإنسان مغامرة غير محسوبة على وجه الدقة؛ بل مجازفة، بل مهلكة مضلة وضراء مضرة، فعلى كل عاقل أن يثوب إلى رشده، ويرجع إلى ربه، وينقلب إليه بصره خاسئًا وهو حسير.

الله تعالى وحده هو علام الغيوب كما حكى عن ذاته تعالى فقال: ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾ [النمل: ٦٥-٦٦]، وقال تعالى: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ [الجن: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [التغابن: ١٨]، وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجمعة: ٨]، وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الحشر: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [الزمر: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ: ٣]، وقال تعالى: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴾ [الرعد: ٩]، وقال تعالى: ﴿ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩٢]، وقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [السجدة: ٦].

فمن إذن أحق بالتشريع للإنسان في واقعه ومستقبله غير الله تعالى، قال تعالى: ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ﴾ [الأنعام: ١١٤]، قال تعالى: ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [آل عمران: ٨٣]، قال تعالى: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠]، قال تعالى: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

بل ينكر الله تعالى ذلك على البشرية فيقول: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الشورى: ٢١].

إن التعامل مع البشر يحتاج منا أن نعرف أولًا: طبيعة البشر، ثانيًا: كيفية التعامل معهم.

أولًا: لا بد لكل من يتعامل مع الإنسان أن يعرف طبيعته وفطرته التي فُطر عليها، فإن بين الناس قدرًا مشتركًا من الطبيعة والتركيب والطباع؛ كوجود روح وقلب ومشاعر ونفس رُكب فيها القدرة على الطاعة والقدرة على المعصية، كما قال تعالى: ﴿ **وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا** ﴾ [الشمس: ٧-١٠]، والواقع والآية يدلان على أن للإنسان طباعًا مجبولًا عليها وأخرى مكتسبة، فالطباع المجبولة سوّيت مع تسوية النفس، والمكتسبة جاءت من التزكية أو التدسية، ويؤيد ذلك الحديث الصحيح الذي رواه أبو يعلى في مسنده وغيره[(١)]:

قال: (حدثنا محمد بن صدران أبو جعفر، حدثنا طالب بن حجير العبدي، حدثنا هود العصري عن جده قال: بينما رسول الله ﷺ يحدث أصحابه إذ قال: «**يطلع عليكم من هذا الوجه ركب من خير أهل المشرق**»، فقام عمر بن الخطاب فتوجه في ذلك الوجه فلقي ثلاثة عشر راكبًا فرحب وقرب، وقال: من القوم؟ قالوا: قوم من عبد القيس قال: فما أقدمكم هذه البلاد؟ التجارة؟ قالوا: لا قال: فتبيعون سيوفكم هذه؟ قالوا: لا، قال: فلعلكم إنما قدمتم في طلب هذا الرجل؟ قالوا: أجل، فمشي معهم يحدثهم حتى نظر إلى النبي ﷺ، فقال لهم: هذا صاحبكم الذي تطلبون، فرمى القوم بأنفسهم عن رحالهم، فمنهم من سعى سعيًا، ومنهم من هرول، ومنهم مشى حتى أتوا رسول الله ﷺ، فأخذوا بيده يقبلونها وقعدوا إليه، وبقي الأشج -وهو أصغر القوم- فأناخ الإبل وعقلها، وجمع متاع القوم ثم أقبل يمشي على تؤدة حتى أتى رسول الله ﷺ فأخذ بيده فقبلها، فقال النبي ﷺ: «**فيك خصلتان يحبهما الله ورسوله**». قال: وما هما يا نبي الله؟ قال: «**الأناة والتؤدة**» قال: أجبلًا جبلت عليه أو تخلقًا مني؟ قال: «**بل جبل**»، فقال: الحمد لله الذي جبلني على ما يحب الله ورسوله.

---

(١) رواه أبو يعلى في مسنده (١٢/ ٢٤٥)، رقم (٦٨٥٠)، والمعجم الكبير (٢٠/ ٣٤٥)، رقم (٨١٢)، والطبقات الكبرى والاستيعاب وكنز العمال وغيره، وقال سليم حسين أسد: إسناده حسن.

وأقبل القوم قبل تمرات لهم يأكلونها، فجعل النبي ﷺ يسمي لهم هذا كذا وهذا كذا، قالوا: أجل يا رسول الله، ما نحن بأعلم بأسمائها منك، قال: «**أجل**»، فقالوا لرجل منهم: أطعمنا من بقية الذي بقي من نوطك، فقام فأتاه بالبرني، فقال النبي ﷺ: «**هذا البرني أما إنه من خير تمراتكم، إنما هو دواء ولا داء فيه**»).

والطباع منها العام الذي يتسم به كل إنسان سواء من أصحاب الحضارات أو غيرهم، ومنها الخاص بفئة أو بيئة أو مرحلة عمرية معينة، ومنها الطباع الفردية التي استقل بها أناس بأعيانهم دون غيرهم من الناس؛ ومثال الأول: حنو الأمومة والأبوة كما قال تعالى: ﴿ **وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا** ﴾ [الإسراء: ٢٤]، فالحنو على الأولاد والتربية فيهما فطرة ارتبطت بالأولاد خاصة في الصغر، وقال تعالى: ﴿ **وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ** ﴾ [لقمان: ١٤]، وقال تعالى: ﴿ **وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ إِحۡسَٰنًاۖ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ كُرۡهٗا وَوَضَعَتۡهُ كُرۡهٗاۖ وَحَمۡلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهۡرًا** ﴾ [الأحقاف: ١٥].

وقال أحمد شوقي أمير الشعراء في وصف النبي ﷺ:

وإذا رحمت فأنت أم أو أب هذان في الدنيا هما الرحماء(١)

ومثال الثاني: ضعف النساء في الخصومة، كما قال تعالى: ﴿ **أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٖ** ﴾ [الزخرف: ١٨]، واختلاف حال الناس بين القوة والضعف مع اختلاف مراحل العمر، قال تعالى: ﴿ **ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ** ﴾ [الروم: ٥٤].

فلا يستوي القوي والضعيف، وكل إنسان يتسم بالضعف في الطفولة والشيبة لا محالة، وكما قال الشاعر:

---

(١) من ديوان أحمد شوقي، قصيدة ولد الهدى، موسوعة الدفاع عن رسول الله ﷺ (٩/ ١٨).

ألا ليت الشباب يعود يومًا فأخبره بما صنع المشيب[1]

واجتماع فئة من الناس على صفة كالنفاق، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْ ۖ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٧]، وقال تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ [الحشر: ١١-١٢].

ومثال الثالث: ما حكاه القرآن الكريم عن معاهد لله بطاعة مضيع لعهده، قال تعالى: ﴿ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴾ [التوبة: ٧٥-٧٧].

ومثال آخر: بلعام بن باعوراء الذي انسلخ من آيات الله بعد أن أُعطيها، وقال عنه تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٦]، والقرآن الكريم صنف الناس من أصحاب الحضارات وغيرهم تصنيفًا دقيقا تحت عنوان: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [البقرة: ٧٨]؛ بل عمد القرآن الكريم إلى فئات بعينها فصنفها صنفًا صنفًا كما فعل ذلك مع المنافقين وأهل الكتاب تحت عنوان: ﴿ وَمِنْهُمْ ﴾ [البقرة: ٧٨].

---

(١) لأبي العتاهية، نهاية الأرب في فنون الأدب (١/ ١٣١)، ونسبه ابن الأعرابي في معجمه إلى الرياشي (١/ ٤٤٢)، وقيل: لمحمد بن عبد الملك الزيات، وقيل: لحاتم الطائي.

ثانيًا: كيفية التعامل معهم:

بعد أن رأينا تصنيف القرآن للناس نجد أنه مع ذكر كل صنف قد ذكر طباعهم وخصالهم وكيفية التعامل معهم.

لقد حاور القرآن الكريم أصحاب الحضارات وواضعي الشرائع في أحقيتهم في التشريع وفي أصل التشريع، بل عمد إلى كثير من شرائعهم؛ بل أعظمها في نظرهم فأبطلها وبيَّن زيفها؛ كتحليلهم وتحريمهم لبعض المطعومات والذبائح، كما في قوله تعالى: ﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [المائدة: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٤٣-١٤٤]، فحاورهم القرآن إجمالًا، وحاورهم تفصيلًا حوارًا لا يملك العاقل أمامه إلا التسليم لرب العالمين عز وجل، وأنه أحق بالتشريع من غيره.

المطلب الرابع
معرفة الإنسان بكل ما حوله من الخلائق غير البشر وكيفية التعامل معهم

لقد منَّ الله تعالى على البشرية حين أعلمها أن الكون من حولها ينقسم إلى عالَمين وهما: عالم الغيب، وعالم الشهادة، وعن هذا قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام: ٧٣]، وقال تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴾ [الرعد: ٩]، وقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [السجدة: ٦]، وقال تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [الزمر: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الحشر: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [التغابن: ١٨] فهذه الآيات الكريمة تثبت لله تعالى علمًا شاملًا بما أسماه: ﴿ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾.

أولًا: عالم الغيب: وهو كل ما غاب عن الإنسان مما لا تدركه حواسه.

ثانيًا: عالم الشهادة: وهو كل ما يدركه الإنسان بحواسه سواءً بذاتها أو بآلة.

والتفاوت بين العالَمين قائم بالنسبة لإدراك البشر ووسائلهم، لا بالنسبة لحقيقة وجودهما، لذلك فهما في علم الله سواء، فالغيب عنده شهادة، والسر عنده علانية، ومن هذا قوله تعالى: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الحاقة: ٣٨-٣٩].

والغيب والشهادة قد يكونان نسبيين، فيتحول شيء من عالم إلى آخر حسب إدراك الإنسان له وعدمه، فمثلًا هذا العالم المادي من حولنا هو من عالم الشهادة، لكن بدءه ونشأته هما من عالم الغيب بالنسبة لنا، قال تعالى: ﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ [الكهف: ٥١]، لذلك لا يُتلقى علمهما إلا عن

طريق الوحي المعصوم، الذي أوحاه الخلَّاق العليم.

وقد يكون الشيء من عالم الغيب ذاتًا، ومن عالم الشهادة آثارًا؛ كالكهرباء والمغناطيس، والمخلوقات الدقيقة التي لا تُرى كالجراثيم وغيرها، ثم إن كل ما يُكتشف منها يتحول إلى عالم الشهادة، ليكون دليلًا ناهضًا يخرس منكري الغيب، ويعلمهم أنهم لم يبلغوا من العلم إلا قليلًا[1].

وهذان العالَمان قد مُلئا بالمخلوقات؛ منها الغيب ومنها المشاهد، تؤثر فينا وتتأثر بنا، لذا لزمنا التعامل معها، فكيف نتعامل مع ما نجهل؟ والإنسان لو تعامل مع أي جهاز من الأجهزة الحديثة وهو يجهله وبدون دليل من عند صانعه، سيفسده لا محالة، فكيف يتعامل الإنسان مع ملايين الخلائق من حوله وهو يجهلها بدون دليل من عند خالقها وصانعها والعليم بها والمدبر لأمرها؟ قال تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٣١]، وخاصة عالم الغيب؛ كالملائكة والجن والشياطين والجراثيم وغيرها، بل حتى المشاهد، فإنا معشر البشر لا ندرك من هذا العالم إلا بعض ظواهره، قال تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَـٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٨]، فمَن مِن البشر يُحصي هذه الأمم أو يُحصي قواعد التعامل معها؟! وأنّى له بذلك.

إن هذا الجانب قد اختص الحق -تبارك وتعالى- بعلمه وعلَّمه الإنسان عن طريق وحيه المنزل على أنبيائه وخاصة سيد المرسلين محمد صلى الله عليهم أجمعين وسلم.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَـٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [فاطر: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الملك: ١٣-١٤]، وهذا يستوجب أن نعرف قدر هذا الرب

(١) المنهاج القرآني في التشريع، للأستاذ الدكتور/ عبد الستار فتح الله سعيد (ص٥٠).

وحقيقة ربوبيته للخلق، وإليك البيان:

ربوبية الله للكائنات:

الربوبية لها ركنان:

١- الخلق. ٢- التدبير وفق أمره.

قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤] وتفصيل ذلك كما يلي:

أولًا: ربوبية الخلق:

لقد خلق الله الخلق كله كما قال تعالى عن ذاته: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢]، ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: ١٠٢]، ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ [الرعد: ١٦]، ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [غافر: ٦٢].

وليس للكون خالق غيره كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر: ٣]، قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٥-٣٦]، بل إن أول ما نزل من القرآن ذكر ذلك، قال تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق: ١].

وهذا الخلق كله مقدر ومحسوب ومرتب وفق حكمة الحكيم العليم، قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ

﴿ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان: ٢]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر: ٤٩]، وحركة هذا الكون كلها جرت بحساب مقدر معلوم، قال تعالى: ﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ [الرحمن: ٥]، ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس: ٤٠]، حتى النبات جاء وفق هذا الميزان الدقيق والقدر المقدور، كما قال تعالى: ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾ [الحجر: ١٩]، وقال تعالى: ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ [ق: ٧].

(فالأرض مدت بحساب، والرواسي ألقيت على ظهرها بتقدير ونظام، والنبات - كثرته الوافرة- قام على عناصر موزونة بمعايير دقيقة، ومتوازنة بتقدير خاص، حتى تعطي لكل زوج منه مشخصاته من الطعم واللون، والصورة والفائدة... إلخ)[1]، وعز من ينازع من أصحاب الحضارات وغيرهم في أن الله تعالى هو الخالق بلا نزاع، قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦١]، وقال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [لقمان: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ﴾ [الزخرف: ٩]، وقال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٧].

ثانيًا: ربوبية الملك والتدبير والأمر:

الله عز وجل وحده مالك هذه المخلوقات جميعها لا ينازعه فيه منازع، كما قال تعالى: ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [الأنعام: ١٢]، وقال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ

(١) المنهاج القرآني في التشريع للأستاذ الدكتور/ عبد الستار فتح الله سعيد (ص٥٩).

وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ [النساء: ١٣٠-١٣٢]، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٧٠]، وقال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ [آل عمران: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿ وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴾ [النحل: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴾ [طه: ٦]، وقال تعالى: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٩]، وغيرها من الآيات كثير مما يدل على ملكية الله تعالى لجميع المخلوقات بلا منازع.

وهو وحده المتصرف في ملكه كيف يشاء، قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ [يونس: ٣١-٣٢].

وهو القيوم القائم على شئون الكون كلها، قال تعالى: ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ [الرعد: ٣٣].

بل هو نور السموات والأرض ومن فيهن، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥].

ولذا كان الحبيب محمد رسول الله ﷺ يناجي ربه كل ليلة في السحر بهذه المعاني الثلاث، كما في الحديث الصحيح الذي رواه الشيخان عن طاوس عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا قام يتهجد من الليل قال: «**اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت ملك السموات والأرض ومن فيهن، أنت الحق وقولك الحق ووعدك الحق ولقاؤك، والجنة حق، والنار حق، والبعث حق، والنبيون حق، ومحمد ﷺ حق، اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أعلنت وما أسررت، أنت المقدم وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك**»[(١)].

وإذا كان الله هو الخالق وهو المالك المدبر لشئون خلقه، فمن له حق التوجيه والتربية غيره، لذا ذلت له الكائنات وعبدت، ونفوس كثير من أهل الحضارات نازعت وأبت.

عبودية الكائنات لربها:

وتتمثل هذه العبودية في خضوع هذا الكون كله -دقيقه وجليله- لله رب العالمين خضوع تذلل وعبادة، وهى هنا بمعناها الواسع كما وصفها ابن تيمية -رحمه الله تعالى- فقال: «العبودية هي غاية الحب مع غاية الذل» فعبودية الكون لله عبودية محبٍّ لربه، عالمٍ بعظمته، قانتٍ لربه القنوت الذي يحبه ربه ويرضاه، ثم هو يخشى مساءلة الرب وحسابه وعقابه، ويؤخذ من هذا ما يلي:

---

(١) رواه البخاري باب الدعاء إذا انتبه من الليل رقم (٦٣١٧)، ومسلم باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه رقم (١٩٩)، والنسائي رقم (١٣١٩)، وابن ماجة رقم (١٣٥٥)، وغيرهم.

أولًا: كون مدرك:

للغيب قوانينه التي تختلف عن قوانين المشاهد، فمن الخطأ قياس الغائب على الشاهد، أو حصر صوره ووسائله في نطاق عقولنا ومعارفنا المحدودة، وإلا كان ذلك المعيار تحكميًا باطلًا.

وهذا الكون له إدراك ما، بكيفيات يعلمها الله رب الكون، كما ورد في الحديث عن أبي ذر ﷺ قال: رأى رسول الله ﷺ شاتين ينتطحان، فقال: «**أتدري فيم ينتطحان يا أبا ذر؟**» قلت: لا. قال: «**لكن الله يدري وسيحكم بينهما**»(١).

وقد أخبرنا بذلك الكتاب وأخبرتنا السنة، فرب العزة بيّن لنا في القرآن الكريم أن لهذه المخلوقات أقوال، وأفعال، وأحوال، ومسئوليات ومثال ذلك ما يلي:

١ - الأقوال:

(أ) **أقوال الجمادات**: ومثال ذلك: قول السموات والأرض لربهما: ﴿ **قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ** ﴾ ردًّا منهما على أمر الله تعالى لهما كما في الآية: ﴿ **ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ** ﴾ [فصلت: ١١]، وهذا يدلنا على إدراكهما لأمره تعالى ولخطابه، وتمييزهما بين الطوع والكره، واختيارهما لأمثل الأمرين.

(ب) **أقوال غير الجمادات**: ومثال ذلك: قول النملة لبنات جنسها حين أحست بخطر يحدق بهن: ﴿ **قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ** ﴾ [النمل: ١٨]، وكذلك قول الهدهد لنبي الله سليمان عليه السلام: ﴿ **أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ**

(١) رواه أحمد في مسنده (١/ ٣٢)، ومسند الطيالسي باب أتدري فيما ينتطحان؟ رقم (٤٧٦).

﴿ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [النمل: ٢٢-٢٦]، وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾ [النمل: ٨٢]، بل إن الهدهد جعله الله تعالى سببًا في هداية أمة بأكملها وهم أصحاب حضارة وهم أهل سبأ؛ فهدوا إلى صراط الله المستقيم بسبب تنبيهه لنبي الله سليمان عن أحوالهم وكفرهم وأغراه بتوجيه الدعوة إليهم؛ بل كان هو أول مبلغ لهم حين حمل كتاب نبي الله سليمان لهم.

ولقد علَّم الله عز وجل نبيه سليمان لغة الكلام عند الطير، وفي هذا يقول تعالى: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النمل: ١٦].

(ج) **أقوال الجن**: ومن ذلك ما حكاه الله عنهم كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴾ قَالُوا۟ يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأحقاف: ٢٩-٣٢]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴾ وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَـٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴾ [الجن: ١-٣]، إلى آخر أقوالهم في السورة التي سميت باسمهم سورة الجن، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴾ [النمل: ٣٩].

(د) **أقوال الملائكة**: والتي منها قول الله تعالى عنهم: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ وَقِهِمُ

ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [غافر: ٧-٩].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [آل عمران: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت: ٣٠].

٢- الأفعال:

(أ) **أفعال الجمادات:** من ذلك ما ورد عن غضبها من نسبة الولد لله تعالى كما حكى القرآن ذلك عنها، فقال: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴾ [مريم: ٨٨-٩١]، وقال تعالى: ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الشورى: ٥].

ومن ذلك عدم بكائها على هلاك المجرمين من البشر من أصحاب الحضارات؛ مثل فرعون وقومه، كما قال تعالى: ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴾ [الدخان: ٢٩]، وذكر تعالى الأرض وأنها لا تحجب من خيرها شيئًا على من أطاع الله تعالى، فقال تعالى عن صاحب الجنة: ﴿ ۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴾ [الكهف: ٣٢-٣٣].

ويؤخذ ذلك المعنى من قوله تعالى: ﴿ وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ﴾ فنفى تعالى عنها أدنى ظلم منها لصاحب الجنة وأعطته كل ما عندها من خير، فهما من قوله تعالى: ﴿ ءَاتَتْ أُكُلَهَا ﴾، ومن

ذلك قوله تعالى عن الجدار: ﴿ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ﴾ [الكهف: ٧٧].

وبعض أهل العلم قد تحفظ في مثل هذه الآيات؛ كالإمام الخازن وغيره، وأن الله تعالى في وصفه لها بالقول أو بالفعل أجراها مجرى من يعقل، وهذا التحفظ أمر اصطلاحي، ومبناه على قياس الغائب على الشاهد، ووصف الحق تعالى أولى بالتأمل، وأجدر بإثبات حقيقة الإدراك والإرادة على الوجه السابق شرحه.

(ب) **أفعال غير الجمادات:** ومن ذلك سفر الهدهد إلى سبأ برسالة نبي الله سليمان إلى ملكة سبأ، فكان الهدهد سببًا في هداية أصحاب حضارة بأكملها للحق، وفي هذا يقول تعالى: ﴿ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ [النمل: ٢٨].

ومن ذلك أيضًا شق الحوت طريقه بإرادة في البحر بعد أن كان حبيسًا مع نبي الله موسى وفتاه، كما قال تعالى: ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴾ [الكهف: ٦٣].

ومن ذلك أيضًا الغراب وهو يعلم ابن آدم الأول كيف يواري سوءة أخيه الذي قتله، قال تعالى: ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴾ [المائدة: ٣١]، فصار الغراب أول لحّاد علَّم الإنسان كيفية الدفن.

ومن ذلك سعي النحلة على رزقها، قال تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٦٨-٦٩].

وقد أخبرنا الحق -تبارك وتعالى- أنه تولى معاش كل ما يدب على الأرض وعلم مواضعه، فقال تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [هود: ٦]، وقال تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا

ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ [العنكبوت: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٖۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمۡعِهِمۡ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٞ ﴾ [الشورى: ٢٩].

(ج) **أفعال الجان:** ومثال ذلك: قوله تعالى: ﴿ وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞۖ وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِۖ وَمِنَ ٱلۡجِنِّ مَن يَعۡمَلُ بَيۡنَ يَدَيۡهِ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغۡ مِنۡهُمۡ عَنۡ أَمۡرِنَا نُذِقۡهُ مِنۡ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ١٢ يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ: ١٢-١٣]، وقال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿ فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ ٣٦ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ ٣٧ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ﴾ [ص: ٣٦-٣٨]، وهذا يدلنا على أن الجن أصحاب حضارة.

(د) **أفعال الملائكة:** ومثال ذلك: قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ١١ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢]، وقال تعالى: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴾ [النحل: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴾ [التحريم: ٦].

٣- الأحوال:

(أ) **أحوال الجمادات:** ومثال ذلك: قول الله تعالى عنها: ﴿ لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الحشر: ٢١]، وقال تعالى: ﴿ وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىۗ بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًا ﴾ [الرعد: ٣١]، وجواب لو هنا: لكان هذا القرآن، روي عن الفراء كما ذكره القرطبي وابن كثير والبغوي وغيرهم، وقيل: الجواب: لكفروا بالرحمن، وقال تعالى عن الحجارة: ﴿ وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا

يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾ [البقرة: ٧٤]، وقال تعالى عن السماء: ﴿ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦۚ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَفۡعُولًا ﴾ [المزمل: ١٨]؛ أي بيوم القيامة.

(ب) **أحوال غير الجمادات:** ومثال ذلك: قول الله تعالى عنها: ﴿ إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا ﴾ [الأحزاب: ٧٢]، وقال تعالى: ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّ ﴾ [الشورى: ٥]، ولقد جنَّد الحق -تبارك وتعالى- الطير والجن لنبيه سليمان عليه السلام فكانوا من خيرة الأجناد، وقد بيَّن الله ذلك فقال: ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيۡمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ وَٱلطَّيۡرِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ ﴾ [النمل: ١٧].

(ج) **أحوال الجن:** ومثال ذلك: قول الله تعالى حكاية عنهم أنهم قالوا: ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَن نُّعۡجِزَهُۥ هَرَبًا ۝١٢ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعۡنَا ٱلۡهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦۖ فَمَن يُؤۡمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخۡسٗا وَلَا رَهَقٗا ﴾ [الجن: ١٢-١٣]، وقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَيۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَوۡتَ مَا دَلَّهُمۡ عَلَىٰ مَوۡتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلۡأَرۡضِ تَأۡكُلُ مِنسَأَتَهُۥۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلۡجِنُّ أَن لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٱلۡغَيۡبَ مَا لَبِثُواْ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ ﴾ [سبأ: ١٤].

(د) **أحوال الملائكة:** ومثال ذلك: قول الله تعالى عنهم: ﴿ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴾ [سبأ: ٢٣].

٤- المسئوليات:

(أ) **الجمادات:** جعل الله تعالى لها مهام ومسئوليات تؤديها، قال عنها تعالى على سبيل المثال: ﴿ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴾ [يس: ٤٠].

(ب) **غير الجمادات:** قال تعالى عن بعضها: ﴿ وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ ۝٤ وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ

حُشِرَتْ﴾ [التكوير: ٤-٥].

(ج) الجان: قال تعالى عنهم: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [سبأ: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ﴾ [الأنعام: ١٢٨]، وقال تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، وقال تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩].

(د) الملائكة: قال تعالى عنهم: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦].

ثانيًا: كون عابد:

١- لله مسبح:

يُثبت الحق -تبارك وتعالى- صفة التسبيح لكل مخلوقاته من الجمادات؛ كالسموات والأرض، وغير الجمادات، وعن هذا قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤]، والآية الكريمة تدفع شبه المنكرين أو المتأولين؛ لأنها قامت على غير علم ولا فقه؛ قال تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحديد: ١]، ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ١]، وقال تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور: ٤١]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾

[الجمعة: ١]، وقال تعالى: ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التغابن: ١]، وقال تعالى: ﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ ﴾ [الرعد: ١٣].

وذكر الحق -تبارك وتعالى- لنا ترجيع الجبال والطير مع نبي الله داود حال تسبيحه، فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ ﴾ [سبأ: ١٠]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ١٨-١٩]، وقال تعالى: ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: ٧٩].

٢- لله ساجد:

لقد أكد الحق -تبارك وتعالى- وأثبت صفة السجود للكائنات كلها الجامدة وغيرها حتى ظلالها، فقال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴾ [الرعد: ١٥]، وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ [الحج: ١٨]، وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [النحل: ٤٨-٥٠].

وكيف لا يسجد له كل شيء حتى الظلال وهو وحده الذي أوجدها وسخرها ودبر أمرها، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ [الفرقان: ٤٥-٤٦]، وقال تعالى: ﴿ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾ [الرحمن: ٦].

٣- لربه سائل:

الكل محتاج إلى الغني والله هو الغني الحميد، حتى الجمادات في أشد الحاجة إليه، فمن يمنع السموات والأرض من الزوال غيره، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [فاطر: ٤١]، وكذلك غير الجمادات، فكل دابة في حاجة إلى رازقها، قال تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [العنكبوت: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [هود: ٦].

والله تعالى حفظ هذه الدواب للبشر ولو أخذهم بذنوبهم ما أبقى منها دابة، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴾ [فاطر: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [النحل: ٦١]، وبيَّن تعالى أن الكل لله سائل، فقال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴾ [الرحمن: ٢٩].

٤- لله قانت:

(لم تخرج الكائنات عن عبوديتها لمولاها، وإنما اختارت «عبودية التسخير»، وتركت للإنسان «عبودية التخيير». يقول الراغب رحمه الله: «العبودية إظهار التذلل، والعبادة أبلغ منها لأنها غاية، ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال وهو الله تعالى... والناس كلهم عباد الله، بل الأشياء كلها كذلك؛ لكن بعضها بالتسخير وبعضها بالاختيار».

ويصف الله تعالى الكائنات جميعًا بصفةٍ وصف بها خاصة أنبيائه وأوليائه[1] فقال: ﴿ بَل

(١) قال تعالى عن نبيه إبراهيم: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل: ١٢٠]، وقال تعالى عن مريم: ﴿ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴾ [التحريم: ١٢].

لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾ [البقرة: ١١٦]، وقال تعالى: ﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾ [الروم: ٢٦]، والقنوت «لزوم الطاعة مع الخضوع» ولفظ «ما» في الآية الأولى موضوع في لما أسماه العلماء «ما لا يعقل» فلها قنوت حقيقي وإن كنا لا ندري كنهه وحقيقته)[١].

٥- لله أسلم:

فالكون كله أسلم لله قياده وسَبَحَ في مسيره الذي رسمه الحق -تبارك وتعالى- له، ولم يحد عنه قيد أنملة، قال تعالى: ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٣].

بل إن الله تعالى ينكر على البشر كيف لا يسلمون لله وهم في وسط كون كله لله أسلم، وفى هذا يقول تعالى: ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [آل عمران: ٨٣].

ثالثًا: كون مسئول ومحاسب:

- الكل ميت وفانٍ: كما قال تعالى: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧]، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴾ [مريم: ٩٣-٩٥]، وقال تعالى: ﴿ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾ [مريم: ٨٠].

- الكل سيحشر لا محالة: كما قال تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي

(١) المنهاج القرآني في التشريع للأستاذ الدكتور/ عبد الستار فتح الله سعيد (ص٦١، ٦٢).

﴿ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]، ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ [النمل: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس: ٥١]، وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾ [الكهف: ٩٩]، وقال تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير: ١-٧].

- **الكل مجيب لربه**: قال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٤ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١-٥].

- **المسئولية الحسابية**: (القرآن والسنة واضحان في تقرير المسئولية الحسابية على كائنات غير الإنسان، مما يظن الإنسان أنها تمضي في هذا الكون هملًا بلا حساب ولا جزاء، يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: ٥]، والمعنى الذي نرجحه في تفسيرها: أنها تُجمع للحساب والقصاص، ثم يقضي الله تعالى فيها بما شاء، حسبما اقتضته حكمته من خلقها وتكليفها، وقدر ونوعية جزائها تعويضًا أو قصاصًا[١].

وقد جاء في السنة تفصيل هذا كقوله ﷺ: «**لتؤدّنّ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يُقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء**»[٢]، والجلحاء التي لا قرن لها)[٣].

وعن أبي ذر ﷺ قال: رأى رسول الله ﷺ شاتين ينتطحان، فقال: «**أتدري فيم ينتطحان يا**

---

(١) انظر في هذا: كتب التفسير، وفي تفسير المنار بحث واسع في هذا عند قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦].

(٢) رواه مسلم باب تحريم الظلم رقم (٢٥٨٢)، والترمذي باب ما جاء في شأن الحساب والقصاص رقم (٢٤٢٠)، ورواه أيضا البيهقي في السنن ومسند أبي يعلى، رقم (٢٦٠٥)، وأحمد رقم (٧٢٠٣)، والبخاري في الأدب المفرد رقم (٧١٣) من حديث أبي هريرة.

(٣) المنهاج القرآني في التشريع للأستاذ الدكتور/ عبد الستار فتح الله سعيد (ص٦٤).

أبا ذر؟» قلت: لا. قال: «لكن الله يدري وسيحكم بينهما»[(١)].

لذا نقرر من هذا العرض الشامل عدة حقائق:

١- أن كل ما ألَّهَ الناس -وخاصة أصحاب الحضارات- مقهور مربوب خاضع لله ليس له من نفسه شيء ولله منه كل شيء، فأنى له أن يؤثر في الكون بذاته تأثيرًا يستحق به عبادة أو تقديسًا.

٢- أن حكم الله ماضٍ نافذ في الكون كله لا طاقة للخلق في دفعه: ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴾ [الطور: ٧-٨]، وقال تعالى: ﴿ سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴾ [المعارج: ١-٢]، وكل الخلائق تدور في فلكها المقدور في نظام مهيب خاضعة وخاشعة لمولاها.

٣- أن الإنسان خَلْقٌ من الخلق، قال تعالى: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴾ [الصافات: ١١]، وزوج من أزواج، قال تعالى: ﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٩]، وأمة من أمم، قال تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وشاء الله أن تكون عبوديته «التخيير» وعبودية غيره «التسخير»، ومهل إلى حين، ثم يبعث ليتلقى جزاءه يوم الدين.

٤- أن للخلائق من حولنا منطقها ولغتها التي تتعامل بها فيما بينها، وفلكها الذي رسم لها تسبح فيه بأمر ربها: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس: ٤٠].

٥- أن الإنسان لا قدرة له ولا طاقة على التعامل السليم مع هذه المخلوقات بدون وحي

---

(١) رواه أحمد في المسند (١/ ٣٢)، ومسند أبي داود الطيالسي باب أتدري فيما ينتطحان؟ رقم (٤٧٦).

خالقها، ولو حاول التعامل معها بدون الوحي لأفسد من حيث ظنه الإصلاح؛ قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ [البقرة: ١١].

٦- حاور القرآن الكريم الناس وخاصة أصحاب الحضارات في أمر هذه الخلائق، وعلمنا أن لها قدرة على التحاور فيما بينها، وضرب لنا أروع أمثلة الحوار؛ كحوار الهدهد لنبي الله سليمان، وكذلك حوار النملة وغيرها.

٧- هذه الخلائق القانتة الساجدة المسبحة لربها من أعظم الآيات الدالة عليه، فهل يحتاج الإنسان بعدها آيات حتى يؤمن؟! قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٧-٣٨]، ومع هذا وجد من يكفر بالله من أصحاب الحضارات على مر العصور، قال تعالى: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الجاثية: ٦].

٨- لقد حاور القرآن الكريم أصحاب الحضارات في أمر آيات الله التي ملأت كونه، وكيف خلقها ودبر أمرها ونظم حركتها ومسيرها واستعبدها له، وجعلها من أعظم الدلالات على جماله وجلاله وكماله، وسخرها لعباده من فضله ورحمته، قال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية: ١٣].